ديوان

مجنون ليلى

جمع وترتيب

عالم زمانه وفريد عصره وأوانه

أبي بكر الوالبي

بتحقيق وشرح

جلال الدين الحلبي

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م - ٨٣٧

ديوان

مجنون ليلى

جمع وترتيب

عالم زمانه وفريد عصره وأوانه

أبي بكر الوالبي

بتحقيق وشرح

جلال الدين الحلبي

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م - ٨٣٧

فأجابته ليلى وهى باكية لما سمعت شعره :

وكلٌّ مُظهِرٌ للناسِ بُغضا   وكلٌّ عندَ صاحبِهِ مَكِينُ(١)

تُخبِّرنا العيُونُ بما أرَدْنَا   وفى القلبَين ثَمَّ هَوًى دَفِينُ(٢)

فلما سمع مقالتها خرّ مغشيًّا عليه ، فلما أفاق قال :

صَرِيعٌ مِن الحُب المُبرِّح والهوى   وأىُّ فَتًى مِنْ عِلَّة الحُبّ يَسْلَمُ

ففطن جلساؤه عند ذلك ، فأخبروا أباها ، فحجبها عنه وعن سائر الناس ، وقدمه إلى السلطان ، فأهدر السلطان دمه إن هو زارها ، فلما حجبت عنه أنشأ يقول :

ألاَ حُجِبَتْ ليلَى وآلَى أميرُها   علىَّ يمينا جاهِلا لا أزُورُها(٣)

وأَوْعَدَنِى فيها رجالٌ أبوهمُ   أبِى وأبوها خُشِّنَتْ لى صُدورُها

علَى غَيْرِ شَىْءٍ غيرَ أنى أحبُّها   وأن فؤادى عندَ لَيلى أسيرُها(٤)

وإنِّى إذَا حَنَّتْ إلى الإلفِ إلفُها   هفابفؤادى حيثُ حنَّت سَحُورُها

ثم إنه لما اشتهر بحبها وابتلى ، قام أبوه وإخوته وبنو عمه وأهل بيته فأتوا أبا ليلى ، وسألوه بالرحم والقرابة والحق العظيم أن يزوجها منه ،

---

(١) فى الأغانى « كلانا مظهر . . . » .

(٢) « « « تبلغنا العيون . . . » ورواية أخرى لهذا البيت :

وأسرار الملاحظ ليس تخفى   إذا نطقت بما تخفى العيون

(ج ٢ ص ١٦) .

(٣) فى رواية الأغانى « على يميناً جاهدا . . . » .

(٤) « « « وأن فؤادى رهنها وأسيرها » .

وأخبروه أنه ابتلى بها ، فأبى أبو ليلى ، ولج وحلف ، وقال : والله لاحدّثت العربُ أنى زوجت عاشقاً مجنونا . فأقبل الناس إلى أبى المجنون ، وقالوا له : لو أخرجته إلى مكة فعوذته بيت الله الحرام ، لعل الله يعافيه مما ابتلى به ! فأخرجه أبوه إلى مكة ، وهما راكبان جملا فى محمل ، فلما قدما مكة قال له أبوه : ياقيس ! تعلق بأستار الكعبة ، ففعل ، فقال : قل اللهم أرحنى من ليلى وحبها ، فقال : اللهم منّ علىّ بليلى وقربها ! فضربه أبوه ، فأنشأ يقول :

يارِبِّ إنك ذو مَنٍّ وَمغفــــرة بيّتْ بعافيــــــة لَيْلَ المحبّينا
الذاكرينَ الهَوى مِنْ بعْد مارقدُوا السَّاقِطِينَ عَلَى الأيْدِى المُكِبِّينَا
يارب لا تَسْــلُبَنِّى حُبَّهَا أَبَدًا وَيَرْحَمُ اللهُ عبدًا قالَ آمينــــا

وقال أيضاً :

دعا المحرمون الله يســـتغفرونهُ بمكةَ شُـعْثا كى تُمَحَّى ذنوبُها
وناديت : يارحمنُ ! أولَ سُؤْلتى لنفسىَ لَيْلَى ثُمَّ أنتَ حَسِـيبُها
وإن أعط ليلى فى حياتىَ لم يَتُبْ إلى الله عبدٌ تَوْبَةً لا أتوبها
يَقَرُّ لعيــــنى قُرْبُها وَيزيدُنِى بِها عَجباً مَن كان عندى يَعيبها
وكم قائلٍ قَد قال تب فعصَـيتُهُ وتلكَ لَعمرى خَلَّةٌ لا أُصِـيبها
ومَا هَجَرَتْكِ النفس ياليــلَ أَنَّها قَلَتْكِ وَلٰـكِنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُها
فيانفسُ صبْراً لستِ والله فاعلمِى بأولِ نفس غابَ عنها حبيبُهـــا

فلما سمع أبوه هذه الأبيات رق له ، فأخذه بيده نحو مِنًى ، يريد رمى الجمار ، فبينما هو بمنى إذ سمع مناديا ينادى من بعض تلك الخيام ، ياليلَى ، نخرّ مغشيًّا عليه ، واجتمع عليه قومه ، وأبوه باكٍ حزين ، فأفاق وهو مصفر اللون ، وأنشأ يقول :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْفِ من مِنًى … فهيَّجَ أحزانَ الفــؤادِ وما يَدْرِى
دعا باسم ليــلَى غيرها فكأنما … أطارَ بلبي طائراً كانَ فى صدرى (١)
دعا باسم لَيْلى أسخن الله عينَه … ولَيْلَى بأرضِ الشَّامِ فى بَلدٍ قَفْرِ (٢)
عرضْتُ على قلبى العَزَاءَ فقال لِى … مِنَ الآنَ فاجزَعْ لاَ تملُّ مِنَ الصَّبْرِ (٣)
إذا بانَ من تهوَى وشَطَّ به النَّوَى … ففُرقة مَن تهوَى أحرّ مِنَ الجمرِ (٤)

وقال :

أياليلَ ! زَندُ البَيْن يقدَحُ فى صدرى … ونارُ الأسَى ترمِى فؤادىَ بالجمــر
أَبَى حَدَثانُ الدهر إلا تشــتُّتاً … وأىُّ هوى يبقى على حَدَث الدهر !
تعزَّ فإن الدهر يجرح فى الصفا … ويقدَح بالعصْرَين فى الجبل الوعْرِ
وإنى إذا ما أعوز الدمعُ أهــلَه … فزعتُ إلى دلحاء دائمــةِ القَطْــر

---

(١) فى الأغانى « أطار بليلى » .
(٢) « « « دعا باسم ليلى ضلل الله سعيه وليلى بأرض عنه نازحة قفر » .
(٣) « « « من الآن فايأس لا أعزك من صبر » .
(٤) « « :
« إذا بان من تهوى وأصبح نائياً فلا شىء أجدى من حلولك فى القبر »
ج ٢ ص ٢٢ .

فوالله ما أنساكِ ما هَبّت الصَّبا   وما ناحت الأطيارُ فى وَضَح الفجر
وما نطقت بالليل سارية القطا   وماصدحت فى الصبح غادية الكُدْر
وما لاح نجمٌ فى السماء وما بكت   مطوّقةٌ شَجْوًا على فَنَنِ السِّدْرِ
وما طَلَعتْ شمسٌ لدى كُلِّ شارق   وما هَطَلَتْ عينٌ على واضِح النَّحْر
وما اغطوطش الغِرْبيب واسودّ لونُه
وما مرّ طولَ الدهرِ ذِكرُكِ فى صدرى (١)
وما حَمَلتْ أنْثى وَمَا خَبَّ ذِعْلِبٌ   وَمَا طَفَحَ الآذِىُّ فِى لُجَجِ البَحْرِ (٢)
وَمَا زَحَفَتْ تَحْتَ الرِّحالِ بركبها   قِلاصٌ تؤمّ البَيتَ فى البَلدِ القَفْرِ
فلا تحسَبِي يالَيلَ أنى نَسِيتكُمْ
وأنْ لَسْتِ منى حيثُ كنتِ على ذُكْر
أيبكى الحمام الوُرْقُ من فَقْدِ إِلْفِهِ   وتَسْلو ومالى عَنْ أَلِيفِىَ مِنْ صَبْرِ
فأُقْسِمُ لا أنساكِ ماذَرَّ شَارِقٌ   وما خَبّ آلٌ فِى مُعَلَّمَةٍ قَفْرِ
ألا لَيتَ شِعرى هلْ أبيتنَّ لَيلَةً   أُناجيكُمُ حَتَّى أَرى غُرّةَ الفجْر
لقد حَمَلَتْ أَيْدى الزمانِ مطيّتِي   علىَ مَرْكَبٍ مُسْتَعْطِلِ النَّابِ والظُّفْرِ

فلما سمع أبوه هذه الأبيات أخذ بيده إلى محفل من الناس ، فسألهم أن يدعوا الله تعالى له بالفرج ، فلما أخذ الناس فى الدعاء أنشأ يقول :

---

(١) غطش الليل يغطش : أظلم . الغربيب : الغراب الأسود الحالك السواد
(٢) الذعلبة بالكسر : الناقة السريعة والنعامة . الآذى : الموج .

ذَكرتكِ والحجيجُ لهمْ ضجيجٌ بمكةَ والقلوبُ لها وَجيبُ
فقلتُ ونحنُ فى بلَدٍ حرامٍ به للهِ أخلصت القُلوبُ
أتوبُ إليكَ يا رحمنُ مما عملتُ فقد تظاهرتِ الذُّنوبُ
فأما مِنْ هَوى ليلَى وتركى زيارتَها فإنى لا أتوبُ
وكيفَ وعندَها قلبى رهينٌ أتوبُ إليكَ مِنها أو أُنيبُ!!

وعن أبى مسكين قال :

خرج رجل منا ، حتى إذا كان بموضع يقال له بئر ميمون ، إذ هو بجماعة فى ذرى جبل ، وإذا فتى قد تعلقوا به كأحسن ما يكون من الرجال وأجملهم ، يريد أن يرمى بنفسه من أعلى الجبل ، غير أنه مصفر اللون ، ناحل البدن ، وهو يقول :

لقد هَمَّ قيسٌ أن يزُجَّ بنفسِه ويَرْمِي بها من ذِروة الجبلِ الصَّعْبِ
فلا غَرْوَ أن الحب للمرءِ قاتلٌ يقلِّبه ما شاءَ جنبا إلى جَنْبِ
أناخَ هَوَى ليْلَى به فأذابهُ ومن ذا يُطيقُ الصَّبْرعن محْملِ الحبِّ!
فَيَسْقيه كأسَ الموت قبلَ أوانِه ويُورده قبلَ الممات إلى التُّرْب

قال : فسألت عنه ، فقيل هذا مجنون بنى عامر ، أخرجه أبوه إلى هذا الجبل ، يستقبل الريح التى تهب من ناحية نجد ، ويكره أن يخليه ، فيرمى بنفسه من الجبل ، فلو شئت دنوت منه ، فأخبرته أنك قدمت من ناحية نجد ، فتقدم إليه ، فلعله ينزل من الجبل ، قلت : نعم ، فدنوت منه ، فقالوا : يا أبا المهدى ! هذا رجل قدم من ناحية نجد ، قال : فتنفس الصُّعَدَاء ، حتى ظننت أن كبده تصدعت ، ثم جلس يسألنى عنها وعن

بلاد نجد ، فأقبلت أحدثه ، وأصف له ، وهو يبكى أشد بكاء ، وأوجعه للقلب ، ويقول :

ألا حبَّــذا نجدٌ وطيبُ ترابها وأرواحُها إن كان نجدٌ على العهدِ (١)

ألا ليتَ شعرى عن عُوَيْرِضَتَىْ قُبًا لِطولِ التنائى هل تَغَيَّرتا بعــدِى (٢)

وعنْ أُقْحُوان الرملِ ماهــوَ فاعلٌ إذا هو أمْسَى ليلةً بثَرًى جَعْــدِ (٣)

وعن جارتينا بالبتيل إلى الحِمَى على عهدِنا أم لم تدوما على عَهْدِ (٤)

وعن عُلُوِيّاتِ الرياح إذا جرت بريح الخُزامَى هل تهبّ إلى نجدِ (٥)

وهل تَنفضَنَّ الريحُ أفنانَ لِمَّتى على لاحق الإطْلَيْنِ مُنْذَلِقِ الوَخْدِ (٦)

وهل أسْمعن الدهرَ أصواتَ هَجْمة تطالعُ من وهدٍ خصيب إلى وَهْدِ (٧)

قال : فأقبل أبوه بعد أن قضى نسكه ، يريد أهله ، فلما قدم جمع أعمامه وأخواله ، فلاموه وعذلوه ، وقالوا : لا خير لك فى ليلى ، ولا لها فيك ، وقد رُددنا عنها ، ولك فى بنات عمك من هى خير لك منها ،

---

(١) لم يذكر هذا البيت فى رواية الأغانى .

(٢) فى رواية الأغانى « . . . عوارضتى قنا لطول الليالى . . . » عوارضة وقنا : جبلان لبنى فزارة .

(٣) فى رواية الأغانى « إذا هو أسرى » وثرى جعد : تراب ند .

(٤) « « « وهل جارتانا » البتيل : جبل بنجد .

(٥) علويات : جمع علوية نسبة إلى العالية ، وهى مافوق أرض نجد إلى تهامة .

(٦) فى رواية الأغانى « وهل أنفضن الدهر . . . على لاحق المتنين . . . »

(٧) « « « تحدر من نشز خصيب إلى وهد » ، الهجمة : عدد كبير من الإبل . النشز : المكان المرتفع . الوهد : المكان المطمئن من الأرض .

فلو تزوجت واحدة منهن نرجو أن يزول عنك بعض مابقلبك من حبها ، فأنشأ يقول :

لقد لامَنِي فى حُبِّ لَيــلَى أقاربى … أَبِي وابنُ عمّى وابنُ خالى وخاليا(١)

يقولون ليــلَى أهلُ بيت عداوةٍ … بنفسىَ لَيْــلَى من عَدُوّ وماليا

أَرَى أهلَ ليلَى لايريدون بيعها … بشىء ولا أهــلى يريدونها لِيا

قضَى اللهُ بالمعروفِ مِنْها لغــيرِنا … وبالشوقِ والإبعادِ منها قضَى لِيا

قَسَمْت الهوى نصفين بينى و بينها … فنصفٌ لهـا هذا لهــذا ، وذا ليا

ألا يا حمامات العِراق أَعنَّــنِى … على شَجَنى وابْـكِينَ مثلَ بُكائيا

يقولون ليــلَى بالعراق مريضــة … فياليتَنى كنتُ الطبيب المداويا

فشابَ بنو ليلى وشابَ ابنُ بِنْتِها … وحُرْقَةُ ليــلَى فى الفؤادِ كما هيا

علىّ لئن لاقيتُ ليــلى بِخَلْوَة … زيارةُ بيتِ اللهِ رَجْلانَ حافيا

فيارَبّ إذ صَيَّرْت ليلى هىَ المُنا … فزِنِّى بعينَيها كما زِنتهــــا لِيا

---

(١) ذكر البيت الأول والثانى من هذه القصيدة فى الأغانى ج ٢ : ص ٣٨ بين بيتين آخرين على هذه الصورة :

يقول أناس : علّ مجنون عامر … يروم سلوّا ؟ ! قلت : أنى لمابيا !...

وقــد لامنى . . . . أخى . . . .

يقولون . . . .

ولو كان فى ليلى شذا من خصومة … للويت أعنــاق المطى المــلاويا

ويحتمل أن يكون سبب تسميته بالمجنون هو البيت الأول الذى نقلناه عن الأغانى ، وكذلك لبيت آخر :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها … فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيا

وإلاَّ فبغِّضْها إلىَّ وأهلَها فإنى بليلَى قدْ لَقيتُ الدَّواهيا
يَلُومُونَ قيْسًا بَعْد ماشَفَّه الهوَى وبَاتَ يُراعى النَّجْمَ حَيْرَانَ باكيا
فياعَجبًا ممن يلومُ على الهوَى فتًى دَنِفًا أمسى من الصبر عاريا
ينادِى الذى فوقَ السموات عرشه ليكشفَ وجْداً بين جَنبيهِ ثَاوِيا
يبيتُ ضجيعَ الهَمِّ مايَطْعَمُ الكَرى ينادِى إلٰهى قد لقيتُ الدَّوَاهِيا
بِسَاحِرةِ العينينِ كالشمس وجهُها يضىءُ سناها فى الدُّجَى مُتساميا

قال : فلما سمعوا مقالته أسمعوه ما يكره ، فمر على وجهه آسياً مهموما ، حزيناً متفكرا ، يتفكر فى أمرها ، حتى منعه ذلك من الطعام والشراب ، وترك محادثة الناس ، وصار فى حَدّ يرحمه من رآه من عدوّ وصديق فقال :

ما بالُ قلبِك يامجنونُ قد هَلَعا من حُبِّ من لا ترى فى وصلها طَمَعا(١)
الحب والعشق سِيطا من دَمِى لهما فأصبحَا فى فؤادِى نابتَيْنِ مَعا(٢)
طُوبَى لمن أنتِ فى الدنيا قرينتُهُ لقد نَفَى اللهُ عنهُ الهَمَّ والجزعا
بَلْ مَاقَرأتُ كِتاباً مِنْكِ يَبْلُغُنِى إلاَّ ترقرقَ ماءُ العَيْنِ أو دَمَعا
أدعو إلى هجرها قلبى فيتبعنى حتَّى إذا قلتُ هذا صادقٌ نَزَعا
لا أستطيع نُزُوعا عن مَوَدَّتِها و يَصْنَعُ الحُبُّ بِى فوق الذى صَنَعا

---

(١) فى رواية الأغانى :

. . . . قد خلعا فى حب من لا ترى فى نيله طمعا

(٢) فى رواية الأغانى :

الحب والود نيطا بالفؤاد لها فأصبحا فى فؤادى ثابتين معا

كَمْ من دنىء لها قد كنت أتْبعُهُ ... ولو صَحَا القَلبُ عنها كان لى تبَعَا
وزادنى كلفاً فى الحبّ أن مُنِعَت ... أحبّ شىء إلى الإنسان مامُنِعا
إقرِ السلامَ على ليْلَى وحُقّ لها ... مِنى التحيَّةُ إن الموت قد نزَعا
أمات أم هو حىّ فى البلاد فقد ... قلّ العزَاء وأبدى القلب ماجزعا

وقيل : كان المجنون بموضع يسمى الواديين ، وكان يجلس بينهما ، ويخلو فى بيته ، فخرج يوما يريدهما ، فلما صار قريباً من الواديين أنشأ يقول :

ألاَ لا أرى وادى المياهِ يُثِيبُ ... ولا النفسَ عن وادى المياهِ تَطِيبُ
أُحِبُّ هُبُوطَ الواديين وإننى ... لمشتهرٍ بالواديين غريبُ
أحقا عباد الله أن لست واردا ... ولا صادرا إلا على رقيبُ
ولا زائرا فردا ولا فى جماعة ... من الناس إلا قِيل أنت مُرِيبُ
وهلْ رِيبة فى أن تحِن نجيبة ... إلى إلْفها أو أن يحِن نجيبُ
وإنّ الكثيبَ الفردَ من جانبِ الحمى ... إلىَّ وإنْ لم آتِهِ لحبيبُ
ولا خيرَ فى الدنيا إذا أنتَ لمَ تزُرْ ... حبيباً ولم يَطْرَبْ إلَيكَ حَبيبُ

وذكر أن أباه الملوّح أتاه ، وحمله إلى بابل ليعالجه ، وذلك قبل نزول مانزل به من الحب الشديد وسورة العشق ، فحمله على ناقته ، فلما أمعنا فى السير ذكر المجنون ليلى ، فلم يتمالك أن قال :

تمتَّعْ مِن ذُرَى هَضَبات نَجْد ... فإنكَ مُوشِكٌ أنْ لاَ تَرَاهَا
أُوَدِّعُها الْغَداَةَ فكُلُّ نفْسٍ ... مفارقةٌ إذا بلغتْ مَداَها

قال فبكى أبوه رحمة له ، وقال : يا بنى ! هل لك أن تسلو بغيرها ، فقال : والله ما أجد إلى السلوّ سبيلا ، وإنى لفى أعظم الكرب والبلاء ، وأنشأ يقول :

وكم قائلٍ لى أسْلُ عنها بغيرها ... وذلكَ من قولِ الوُشَاةِ عَجِيبُ
فقلتُ وعينى تَستهلُّ دموعُها ... وقلبى بأكْنَافِ الحبيبِ يَذُوبُ
لَئِنْ كَانَ لِى قلبٌ يذوبُ بذكرها ... وقلبٌ بأُخْرى ، إنَّها لَقُلُوبُ
فياليلَ جُودِى بِالوِصَالِ فَإِنَّنِى ... بُحُبِّيكِ رَهْنٌ والفؤادُ كَئِيبُ
لعلكِ أن تُرْوَىْ بشُرْبٍ على القَذَى ... وتَرْضَىْ بأخلاقٍ لهن خُطوبُ
وتَبْلِى وصالَ الواصلينَ فتعلمِى ... خلائقَ مَنْ يُصفِى الهوى ويَشُوبُ
لقد شفَّ هذا القلبَ أَنْ لَيْسَ بارحا ... لهُ شَجَنٌ ما يُسْتَطاعُ قريبُ
فلاَ النفسُ تخليها الأعادِى فتَشْتَفِى ... ولا النفسُ عَمَّا لا تنالُ تَطيبُ
لَكِ اللهُ إنّى واصلٌ ماوصَلْتِنِى ... ومُثْنٍ بما أوْلَيْتِنِى وَمُثِيبُ
وآخذٌ ما أعطيتِ صفوًا وإنَّنِى ... لأَزْوَرُ عمّا تكرهين هَيُوبُ
فلا تَتْرُكِى نفسِى شَعاعًا فإنها ... من الوَجْد قد كادت عليكِ تذُوبُ
وأَلْقَى من الحبّ المبرّحِ سَوْرَةً ... لها بين جلدِى والعظامِ دَبيبُ
وإنى لأستَحْيِيكِ حَتَّى كأَنَّمَا ... عَلَىَّ بظهرِ الغَيْب منكِ رَقيب

قال الوالبي :

بلغنى أنه دخل بابل ، واجتمع إليه المطببون ، وأقبلوا يسقونه شربة بعد شربة ، ويكوونه ، فلما أكثروا عليه أنشأ يقول :

دَعونى دَعونى قد أطلتم عذابيا ... وأنضجتُمُ جِلدِى بحرِّ المَكاوِيا
دَعونى أمتْ غَمًّا وهَمًّا وكُرْبةً ... أيَاوِيحَ قلبِى مَنْ بِهِ مِثلُ مابيا
دَعونى بِغمى وانْهَدُوا فى كَلاءةٍ ... مِنَ اللهِ قد أيقنتُ أنْ لَسْتُ بَاقِيا
ورَاءكُمُ إنّى لقيتُ من الهوَى ... تباريحَ أبْلَتْ جِدَّتِى وَشَبَابِيَا
بَرَانىَ شوقٌ لو بِرَضْوَى لَهَدَّهُ ... ولوْ بِثَبيرٍ صارَ رَمْساً وَسافِيَا
سَقَى اللهُ أطلالاً بناحية الحِمَى ... وإنْ كُنَّ قد أبدِين للناس مابِيا
منازلُ لو مرّتْ عليْها جَنازَتِى ... لقالَ الصَّدَى : ياحامِلَىَّ انزِلا بيا
فأشْهدُ بالرَّحمٰنِ مَنْ كانَ مُؤْمِناً ... ومَنْ كانَ يَرْجُو الله فهو دَعَا لِيَا
لحَا اللهُ أقوامًا يقولون إننا ... وجدْنا الهوَى فى النأىِ للصَّبِّ شافيا
فما بالُ قلبِى هدَّهُ الشوقُ والهوَى ... وأنضَجَ حَرُّ البين مِنِّى فُؤاديا
ألاَ ليْت عينى قد رأتْ مَن رَآكُمُ ... لعلِّىَ أسلو ساعةً مِنْ هُيامِيَا
وهَيْهاتَ أن أسلو من الحُزن والهوَى ... وهذا قَميصِى من جوَى البين باليا
فقلتُ نسيمَ الرِّيحِ أدِّ تحيَّتِى ... إليها وما قد حَلَّ بِى ودَهانيا
فأشْكُرُهُ إنى إلَى ذاك شائق ... فياليتَ شِعرى هل يكونُ تلاقيا
مُعذِّبتى ! لولاكِ ما كنتُ هائماً ... أبيتُ سَخِينَ العين حَرَّانَ باكيا
معذبتى ! قدْ طال وجدى وشفَّنِى ... هواكِ فياللناس قَلَّ عَزائِيَا

معذبتي ! أوردتِـني مَنْهَلَ الردَى وأَخلفتِ ظَـنّى واخترمتِ وِصاليا
خليليّ هيّا فَأَسعداني على البُـكا فقد جَهدَتْ نفسى وربِّ المثانيا
خليــلىّ إنِّى قد أَرِقْتُ وَنِمْتُما لِبَرْقٍ يَمانٍ فاجلسا عَلاّنيا
خليلىّ لو كنتُ الصحيحَ وكنتُما سـقيمين لم أفعلْ كفعلِكما بيا
خليــلىّ مُدَّا لِى فراشىَ وارفَعا وِسادِى لعلّ النومَ يُذهِب مابيا
خليــلىّ قد حانت وفاتِى فاطلُبا لِىَ النَّعْشَ والأكفانَ واستغفِرا لِيا
و إن مِتّ مِن داء الصبابةِ أَبْلِغا شبيهةَ ضوءِ الشمسِ منِّى سَلاَمِيا

وقال بعضهم : بينا أنا أدور فى صحراء بنى تميم ، إذ مررت بقانصين قد قنصا ظبياً وعقلاه ، فوقفت أنظر إليهما إذا أنا بغلام قد أقبل ، كأن وجهه فلقة قمر ، عليه ضفيرتان تضربان خصره ، فدنا منهما ، وتأمل الظبى ثم أرسل عينيه بالبكاء وهو يقول :

وذكرنى من لا أبوح بذكره محاجر خشـف فى حبائل قانص
فقلتُ ودمع العَـيْنِ يجرى بحُرْقةٍ ولَحظِى إلى عينيه لحظةُ شاخِصِ
أَلاَ أَيُّهذا القانصُ الخِشْفَ خَـلِّهِ وَإِنْ كُنْتَ تَأْبَاهُ فَخُذْ بِقلائِصِى
خَفِ اللهَ لاَ تَقتُلْهُ إِنَّ شَبِـيهَهُ حَياتِى وقد أَرْعَدْتَ مِنى فَرائِصِى

فوالله ما برح حتى اشتراه ، وخلى سبيله .

وقيل :

دخل كُثَيِّر بن عبد الرحمٰن على عبد الملك بن مروان ، وقد قعد

للشرب ، فقال : يا كثير ! هل رأيت أعشق منك ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، قال : وكيف وأنت القائل :

رُكْبانُ مَــــكّةَ والذين أَرَاهُمُ   يَبْكُونَ مِن حَــرّ الفؤاد هُمُودا
لو يســـمعون كما سمعت كلامَها   خروا لعزةَ ركّعًا وسُــــجُودا
اللهُ يعـــــلم لو أردتُ زيادةً   فى حُب عـــزّةَ ماوجدتُ مَزِيدا

قال : أخبرك ياأمير المؤمنين ! بينما أنا أسير فى بعض البوادى ، فى ساعة الهاجرة ، فى يوم شديد الحر ، إذ رفع لى شخص فى مفازة ، ليس بها أنيس ، فذعرت منه ، ثم ملت إليه ، فإذا هو شاب حسن الوجه ، جعد الشعر ، فقلت : إنسى أنت أم جنى ؟ قال : بل إنسى ، فقلت : ماأخرجك فى هذه الساعة إلى هذه البرية ؟ قال : نصبت شركا للظباء ، قلت ــ وقد قرمت إلى اللحم ياأمير المؤمنين : ــ أتجعل لى فيه نصيبا إن أقمت عليك ؟ قال : نعم ونعمة عين ، فأقمت عنده حتى اقتنص ظبية كأحسن ما يكون من الظباء ، ثم قبض على قرنها ، وأقبل ينظر فى محاسنها ويقول :

أيا شِبْــــهَ ليلَى لا تُرَاعى فإننى   لكِ اليومَ من بين الوحوش صَديقُ(١)

---

(١) فى رواية الأغانى (ج ٢ ص ٨٢) :

. . . .   لك اليوم من وحشية لصـــديق
ويا شـــبه ليلى لو تلبثت ساعة   لعل فؤادى من جواه يفيـــق
تفـــر وقد أطلقتها من وثاقهـــا   فأنت لليـــلى لو علمت طليـــق

ثم أطلقها وجعل ينظر فى أثرها ويقول :

أقــول وقد أطلقتها من وَثَاقِها ... فأنت لليلَى إن شكرتِ عتيقُ
فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيــدها ... سوى أن عظم الساقِ منكِ دقيقُ
وكادَ بـــلادُ الله يا أمَّ مالِكٍ ... بما رَحُبَتْ منكمْ علىَّ تضيقُ(١)

قال : ثم وقفت يا أمير المؤمنين ساعة ، فإذا قد علقت أخرى ، فصنع بها ما صنع بالأولى ، ثم أطلقها وأنشأ يقول :

ألا ياشِـــبْهَ ليلَى لا تُرَاعِى ... ولا تتســلَّ عن وِرْدِ التِّلاعِ
لقد أشبهتِها إلا خِـــلالاً ... نُشــوزَ القَرْن أو خَمْشَ الــكُرَاعِ

فتعجبت يا أمير المؤمنين من صنعه ، فما كان إلا هنيهة حتى علقت أخرى ، فأطلقها من وثاقها ، وجعل يبكى ويقول :

تَرُوحُ سَالمــاً ياشِــبْهَ لَيلَى ... قَرِيرَ العَيْنِ واسْـتَطِب البقُولاَ
فَليــلَى أنقَذَتكَ مِن المنَايَا ... وَفَكَّتْ عَن قَوَائِمكَ الــكُبُولاَ

فغاظنى يا أمير المؤمنين غيظا شديدا ، وقلت فى نفسى ستعلم ، ثم مكثنا ساعة فعلقت أخرى فوثبت إليها فكسرت يدها طمعاً فى لحمها فبكى بكاء

---

(١) فى رواية الأغانى :

تكاد بلاد الله يا أم مالك ... بما رحبت يوما علىّ تضيق

وأم مالك : كنية ليلى صاحبة المجنون ، وقد كناها فى كثير من شعره فمنها :

فإن الذى أملت من أم مالك ... أشاب قذالى واستهام فؤاديا
خليــلى إن دارت على أم مالك ... صروف الليالى فابغيا لى ناعيا

عاليا ، ثم قال : ويحك ! ما دعاك إلى أن أفسدت موضعا يوافقنى وكنت ألفته ، ثم اغتفلنى فأتى ماء كان قريباً منه فغمس فيه كساء فبلّه ، ثم أتى توبرة فاطفأها ثم قال : أفسدت حالى وماأراه إلاأنه مات .

فقال عبد الملك بن مروان : فأين أنت من قولك حيث تقول :

أَيَاعَزُّ لَوْ أَشْكُو الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي ... إِلَى مَيِّتٍ فِي قَبْرِهِ لَبَكَى لِيَا
وَيَاعَزُّ لَوْ أَشْكُو الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي ... إِلَى رَاهِبٍ فِي دَيْرِهِ لَرَثَى لِيَا
وَيَاعَزُّ لَوْ أَشْكُو الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي ... إِلَى جَبَلٍ صَعْبِ الذُّرَى لَانْحَنَى لِيَا
وَيَاعَزُّ لَوْ أَشْكُو الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي ... إِلَى ثَعْلَبٍ فِي جُحْرِهِ لَانْبَرَى لِيَا
وَيَاعَزُّ لَوْ أَشْكُو الَّذِي قَدْ أَصَابَنِي ... إِلَى مُوثَقٍ فِي قَيْدِهِ لَعَدَا لِيَا

قال : أشعر منى يا أمير المؤمنين الذى يقول :

إِنَّ الظِّبَاءَ الَّتِي فِي الدُّورِ تُعجِبُنِي ... تِلْكَ الظِّبَاءُ الَّتِي لَا تَأْكُلُ الشَّجَرَا
لَهُنَّ أَعْنَاقُ غِزْلَانٍ وَأَعْيُنُهَا ... وَهِيَ أَحْسَنُ مِنْ أَبْدَانِهَا صُوَرَا
وَلِي فُؤَادٌ يَكَادُ الشَّوْقُ يَصْدَعُهُ ... إِذْ تَذَكَّرَ مِنْ مَكْنُونِهِ الذِّكَرَى
كَانَتْ كَدُرَّةِ بَحْرٍ غَاصَ غَائِصُهَا ... فَأَسْلَمَتْهَا يَدَاهُ بَعْدَ مَا قَدَرَا

ويقول :

إِذَا نَظَرْتُ عَرَفْتُ الْجِيدَ مِنْهَا ... وَعَيْنَيْهَا وَلَمْ نَعْرِفْ سِوَاهَا
كَرِهْنَا أَنْ نُفَزِّعَهَا فَقُلْنَا ... أَشَلَّ اللَّهُ كَفَّ مَنْ رَمَاهَا

قال : فمن هذا ؟ قلت ياأمير المؤمنين هو الذى يقول فى قصيدته :

وَكُنْتُ كَذَبَّاحِ الْعَصَافِيرِ دَائِباً وَعَيْنَاهُ مِنْ وَجْدٍ عَلَيْهِنَّ تَهْمِلِ
فَلَا تَنْظُرِي لَيْلَى إِلَى الْعَيْنِ وَانْظُرِي إِلَى الْكَفِّ مَاذَا بِالْعَصَافِيرِ تفعل

قال : ويحك ! عساه المجنون ؟ قلت : نعم ، قال فزدني من شعره فقلت قال :

لَوْ سِيلَ أَهْلُ الْهَوَى مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمُ
هَلْ فُرِّجَتْ عَنْكُمُ مُذْ مُتُّمُ الْكُرَبُ
لَقَالَ صَادِقُهُمْ أَنْ قَدْ بُلِي جَسَدِي لَكِنَّ نَارَ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ تَلْتَهِبُ
جَفَّتْ مَدَامِعُ عَيْنِ الْجِسْمِ حِينَ بَكَى وَإِنَّ بِالدَّمْعِ عَيْنُ الرُّوحِ تَنْسَكِبُ

وقال :

أَحِنُّ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ وَحَاجَتِي خِيَامٌ بِنَجْدٍ دُونَهَا الطَّرْفُ يَقْصُرُ
وَمَا نَظَرِي مِنْ نَحْوِ نَجْدٍ بِنَافِعِي أَجَلْ وَلَكِنِّي عَلَى ذَاكَ أَنْظُرُ
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ عَبْرَةٌ ثُمَّ نَظْرَةٌ لَعَيْنِكَ يَجْرِي مَاؤُهَا يَتَحَدَّرُ
مَتَى يَسْتَرِيحُ الْقَلْبُ إِمَّا مُجَاوِرٌ حَزِينٌ وَإِمَّا نَازِحٌ يَتَذَكَّرُ
يَقُولُونَ كَمْ تَجْرِي مَدَامِعُ عَيْنِهِ لَهَا الدَّهْرَ دَمْعٌ وَاكِفٌ يَتَحَدَّرُ
وَلَيْسَ الَّذِي يَجْرِي مِنَ الْعَيْنِ مَاءَهَا وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَذُوبُ وَتَقْطُرُ

وقال :

وَشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِوَى مَا كَانَ مِنْكِ وَحُبُّكُمْ شُغْلِي
وَأُدِيمُ نَحْوَ مُحَدِّثِي لِيَرَى أَنْ قَدْ فَهِمْتُ وَعِنْدَكُمْ عَقْلِي

وقال : واجتمع قوم على جرير بن الخطفى ، فقال لهم جرير : مابيت نصفه كأنه أعرابى على قعود ، ونصفه كأنه جالينوس بحكمته ؟ قالوا : لاندرى ، قال : قد أجلتكم ، قالوا : لو أجلتنا حوالين لم ندر ، ولكن عرّفنا ، فأنشأ يقول :

أَلَا أَيُّهَا النُّوَّامُ وَيْحَكُمُ هُبُّوا

كأنه أعرابى على قعود له ، ثم أدركه اللين ووضوح الحب فقال :

أُسَائِلُكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الْحُبُّ

فَقَالُوا نَعَمْ حَتَّى يَرُضَّ عِظَامَه ... وَيَتْرُكَهُ حَيْرَانَ لَيْسَ لَهُ لُبُّ

فَيَابَعْلَ لَيْلَى كَيْفَ يُجْمَعُ شَمْلُنَا ... لَدَىَّ وَفِيمَا بَيْنَنَا شَبَّتِ الْحَرْبُ

لَهَا مِثْلُ ذَنْبِي الْيَوْمَ إِنْ كُنْتُ مُذْنِباً

وَلَا ذَنْبَ لِي إِنْ كَانَ لَيْسَ لَهَا ذَنْبُ

وعن رجل من بنى أسد قال :

خرجت فى عام أشهب ، أمسكت السماء فيه مطرها ، والأرض نبتها ، فرحّلت ناقتى وركبت الصعب والذلول ترفعنى أرض ، وتخفضنى أخرى ، فلما صرت فى ماء لبنى حنيفة ، رفعت لى روضة معشبة ، كثيرة الأنوار والزهر ، فدعتنى نفسى إلى الإلمام بها ، فنزلت فى أرجاء تلك الأزاهير المونقة ، والأنوار البديعة المورقة ، وأنخت ناقتى إلى قنوان شجرة صغيرة ، وجلست هنيهة ، فبينا أنا كذلك إذ سقط رجل من

جراد ، فافترشت جنباتها ، وأخذت طولها وعرضها ، فظللت متعجب مما أرى ، ثم رميت نظرى فى نواحيها ، فإذا أنا بشخص أقبل وما على جسده غير شعر منسدل على صدره ، وزغبات على عكنه ، فراعنى منظره ، واستطار قلبى خوفاً ووجلا ، وخشيت أن أكون على شرف الهلاك ، وما شككت أنه شيطان مارد ، فلما دنا منى أنشأ يقول :

حُبٌّ إِلَيْنَا بِكَ يَا جَرَادُ
أَرْضٌ وَإِنْ جَاعَتْ بِكَ الأَكْبَادُ　　وَضَاقَتِ الأَصْدَارُ وَالأَوْرَادُ
وَلَمْ يَكُنْ قَبْلُ لَنَا عَتَادُ　　وَلاَ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ زَادُ

فقلت إنسىّ أنت أم جنى ؟ فأنشأ يقول :

إِلَيْكَ عَنِّى فَإِنِّى هَائِمٌ وَصِبُ
أَمَا تَرَى الْجِسْمَ قَدْ أَوْدَى بِهِ الْعَطَبُ
لِلّٰهِ قَلْبِى مَاذَا قَدْ أُتِيحَ لَهُ　　حَرُّ الصَّبَابَةِ وَالأَوْجَاعُ وَالْوَصَبُ
ضَاقَتْ عَلَىَّ بِلاَدُ اللهِ مَا رَحُبَتْ　　يَا لَلرِّجَالِ فَهَلْ فِي الأَرْضِ مُطَّرَبُ
الْبَيْنُ يُؤْلِمُنِى وَالشَّوْقُ يَجْرَحُنِى　　وَالدَّارُ نَازِحَةٌ وَالشَّمْلُ مُنْشَعِبُ
كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى لَيْلَى وَقَدْ حُجِبَتْ
عَهْدِى بِهَا زَمَناً مَا دُونَهَا حُجُبُ

ثم خرّ مغشيًّا عليه ، فبادرت إلى الماء ، ونضحت على وجهه ، فأفاق بعد حين ، ثم تنفس الصعداء فأنشأ يقول :

بِلَادِى لَوْ فَهِمْتِ بَسَطْتُ عُذْرِى ... إِذَا مَا الْقَلبُ عَاوَدَهُ نُزُوعُ
بِهَا الْحَنِينُ الْمُبَاحُ لِمَن بَغَاهُ ... وَجَزَعٌ لِلْغَرِيبِ بِهِ مُرِيعُ
إِلَى أَهْلِي الْكِرَامِ تُشَاقُ نَفْسِى ... فَهَلْ يَوْماً إِلَى وَطَنِى أَرِيعُ

وقيل : كانت العرب تحفر الركايا والبرك وتملؤها ماء ، ثم تسقى إبلها وغنمها ، فإذا انتجعت إلى غير تلك البقعة عفتها الرياح الصيفية ، فطمست آثارها القساطل ، فكان المجنون يمرّ بتلك البقاع فلا يرى غير وتد مشجوج ، ونؤى منهدم ، وطوى مثاوم ، فيستعبر أسفاً وحزناً ويقول :

أَلاَ يَا رُكَيَّاتِ الرَّسِيسِ عَلَى الْبِلاَ ... سُقِيتُنَّ هَلْ فِي ظِلِّكُنَّ شُجُونُ
أَضَرَّ بِكُنَّ الْعَامَ نَوْءُ سَحَابَةٍ ... وَمَحْلٌ فَمَا تَجْرِى لَكُنَّ عُيُونُ
أَجَنْتُنَّ بَعْدَ الْحَيِّ فَانْتَاحَتِ اللِّوَى ... وَكُنْتُنَّ عَهْدِى مَا بِكُنَّ أُجُونُ

قال : ثم قعد عند جبل يقال له الوشل بناحية تهامة ، كأعظم ما يكون من الجبال ، وأنشأ يقول :

إِقْرَأْ عَلَى الْوَشَلِ السَّلاَمَ وَقُلْ لَهُ ... كُلُّ الْمَشَارِبِ مُذْ هُجِرْتَ ذَمِيمُ
جَبَلٌ يَزِيدُ عَلَى الْجِبَالِ إِذَا بَدَا ... بَيْنَ الذَّرَائِعِ وَالْحُثُومِ مُقِيمُ (١)
تَسْرِى الصَّبَا فَتَبِيتُ فِى أَلْوَازِهِ ... وَيَبِيتُ فِيهِ مَعَ الشَّمَالِ نَسِيمُ (٢)
سُقْيَاً لِظِلِّكَ بِالْعَشِيِّ وَبِالضُّحَى ... وَلِبَرْدِ مَائِكَ وَالْمِيَاهُ حَمِيمُ

---

(١) الذرائع : جمع ذريعة وهى الوسيلة يقال استذرع به : استتر وجعله ذريعة له . الحثوم : جمع حثمة ، وزن ثمرة : وهى الرابية ، وقيل الطريق العالية .

(٢) ألواز : جمع لوزة : وهى ثمر شجر معروف .

لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ مَنْعَ مَائِكِ لَمْ يَذُقْ
مَا فِي قِلاَتِكِ مَا حَيِيتُ لَئِيمُ

وقيل : خرج رجل يريد سفراً ، فبينما هو يمرّ بين سباسب وآكام ، إذ رأى رجلا نحيل الجسم كأضوإ ما يكون من الرجال وهو على شفير بئر ، قال فدنوت منه فإذا هو يقول :

عَفَا اللهُ عَنْ لَيْلَى وَإِنْ سَفَكَتْ دَمِي
فَإِنِّي وَإِنْ لَمْ تَجْزِنِي غَيْرُ عَائِبِ
عَلَيْهَا وَلاَ مُبْدٍ لِلَيْلَى شِكَايَةً
وَقَدْ يَشْتَكِي الْمُشْتَكَى إِلَى كُلِّ صَاحِبِ
يقولون تُب عَنْ ذِكْرِ لَيْلَى وَحُبِّهَا وَمَا خَلَدِي عَنْ حُبِّ لَيْلَى بِتَائِبِ

وقال أيضاً :

فَيَاقَلْبُ مُتْ حُزْناً وَلاَ تَكُ جَاذِعًا فَإِنَّ جَذُوعَ الْقَوْمِ لَيْسَ بِخَالِدِ
هَوِيتُ فَتَاةً كَالْغَزَالَةِ وَجْهُهَا وَكَالشَّمْسِ يَسْبِي دَلُّهَا كُلَّ عَابِدِ
وَلِي كَبِدٌ حَرَّى وَقَلْبٌ مُعَذَّبٌ وَدَمْعٌ حَثِيثٌ فِي الْهَوَى غَيْرُ جَامِدِ
وَآيَةُ وَجْدِ الصَّبِّ تَهْطَالُ دَمْعِهِ وَدَمْعُ شَجِيِّ الصَّبِّ أَعْدَلُ شَاهِدِ
عَلَى مَا انْطَوَى مِنْ وَجْدِهِ فِي ضَمِيرِهِ عَلَى الآنِسَاتِ النَّاعِمَاتِ الْخَرَائِدِ
فَيَالَيْتَ أَنَّ الدَّهْرَ جَادَ بِرَجْعَةٍ وَهَيْهَاتَ إِنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ بِعَائِدِ
إِلَيْكَ فَعَزِّ النَّفْسَ وَاسْتَشْعِرِ الْأَسَى فَحُبُّكَ يَنْمِي زَائِدًا غَيْرَ بَائِدِ

وَقَدْ شَسَعَتْ لَيْلَى وَشَطَّ مَزَارُهَا ... وَغَيَّرَهَا عَنْ عَهْدِهَا قَوْلُ حَاسِدِ
فَيَا أَسَفَا حَتَّامَ قَلْبِي مُعَذَّبٌ ... إِلَى اللهِ أَشْكُو طُولَ هٰذِي الشَّدَائِد

ثم رجعت فتركته ومضيت عنه .

وعن رجل من بني عامر قال :

لقيت المجنون عند قفوله عن البيت الحرام ، فقلت له : ويحك ! استشعر الصبر ، واستبق مودة الحبيب بكتمان الحب ، واعلم أنك لا تصل إلى الحبيب إلا بالستر ونفيك الشنعة ، فإن التهتك يقطع مواد الغبطة ، وليس للمهتوك ألفة ، والمستور طويل مدة الغبطة ، فكان من جوابه أن قال :

إِنَّ الْغَوَانِيَ قَتَّلَتْ عُشَّاقَهَا ... يَالَيْتَ مَنْ جَهِلَ الصَّبَابَةَ ذَاقَهَا
فِي صُدْغِهِنَّ عَقَارِبٌ يَلْسَعْنَنَا ... مَا مَنْ لَسَعْنَ بِوَاجِدٍ تِرْيَاقَهَا
إِنَّ الشَّقَاءَ عِنَاقُ كُلِّ خَرِيدَةٍ ... كَالْخَيْزُرَانَةِ لَا تَمَلُّ عِنَاقَهَا
بِيضٌ تُشَبَّهُ بِالْحِقَاقِ ثُدِيُّهَا ... مِنْ عَاجَةٍ حَكَتِ الثُّدِيَّ حِقَاقُهَا
يُدْمِي الْحَرِيرُ جُلُودَهُنَّ وَإِنَّمَا ... يُكْسَيْنَ مِنْ حُلَلِ الْحَرِيرِ رِقَاقَهَا
زَانَتْ رَوَادِفَهَا دِقَاقُ خُصُورِهَا ... إِنِّي أُحِبُّ مِنَ الْخُصُورِ دِقَاقَهَا
إِنَّ الَّتِي طَرَقَ الرِّجَالَ خَيَالُهَا ... مَا كُنْتُ زَائِرَهَا وَلَا طَرَّاقَهَا

وقال أيضاً :

وَقَالُوا : لَوْ تَشَاءُ سَلَوْتَ عَنْهَا ... فَقُلْتُ لَهُمْ فَإِنِّي لَا أَشَاءُ

وَكَيْفَ وَحُبُّهَا عَلِقٌ بِقَلْبِي ... كَمَا عَلِقَتْ بِأَرْشِيَةٍ دِلَاءُ [1]
لَهَا حُبٌّ تَنَشَّأَ فِي فُؤَادِي ... فَلَيْسَ لَهُ وَإِنْ زُجِرَ انْتِهَاءُ
وَعَاذِلَةٍ تُقَطِّعُنِي مَلَامًا ... وَفِي زَجْرِ الْعَوَاذِلِ لِي بَلَاءُ

قال : فأقسمت عليه أن ينشدنى أحسن ما قاله فى وصف المحاجر والأطراف ، والبشر والجلد ، فقال :

لَيَالِيَ أَصْبُو بِالْعَشِيِّ وَبِالضُّحَى ... إِلَى خُرَّدٍ لَيْسَتْ بِسُودٍ وَلَا عُصْلِ
مُنَعَّمَةِ الْأَطْرَافِ هَيْفٌ بُطُونُهَا ... كَوَاعِبُ تَمْشِي مِشْيَةَ الْخَيْلِ فِي الْوَحْلِ
وَأَعْنَاقُهَا أَعْنَاقُ غِزْلَانِ رَمْلَةٍ ... وَأَعْيُنُهَا مِنْ أَعْيُنِ الْبَقَرِ النُّجْلِ
وَأَثْلَاثُهَا السُّفْلَى بُرَادِي سَاحِلٍ ... وَأَثْلَاثُهَا الْوُسْطَى كَثِيبٌ مِنَ الرَّمْلِ
وَأَثْلَاثُهَا الْعُلْيَا كَأَنَّ فُرُوعَهَا ... عَنَاقِيدُ تُغْذَى بِالدِّهَانِ وَبِالْعَسَلِ
وَتَرْمِي فَتَصْطَادُ الْقُلُوبَ عُيُونُهَا ... وَأَطْرَافُهَا مَا تُحْسِنُ الرَّمْيَ بِالنَّبْلِ
زَرَعْنَ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ ثُمَّ سَقَيْنَهُ ... صَبَابَاتِ مَاءِ الشَّوْقِ بِالْأَعْيُنِ النُّجْلِ
رَعَابِيبُ مَا صِدْنَ الْقُلُوبَ وَإِنَّمَا ... هِيَ النَّبْلُ رِيشَتْ بِالْفُتُورِ وَبِالْكُحْلِ
فَفِيمَ دِمَاءُ الْعَاشِقِينَ مُطَلَّةٌ ... بِلَا قَوَدٍ عِنْدَ الْحِسَانِ وَلَا عَقْلِ
وَيَقْتُلْنَ أَبْنَاءَ الصَّبَابَةِ عَنْوَةً ... أَمَا فِي الْهَوَى يَا رَبِّ مِنْ حَكَمٍ عَدْلِ!!

---

(١) الأرشية : جمع رشاء ، وهو الحبل . والدلاء : جمع دلو ، وهو ما يستقى به ويجمع أيضاً على دلىّ .

وقال أبو الحسن العلوى : سألت الوالبى عن أحسن شىء قاله المجنون في العفة فأنشدنى :

أَلاَ يَاشِفَاءَ النَّفْسِ لَوْيُسْعِفُ النَّوَى ... وَنَجْوَى فُؤَادِي لاَ تُبَاحُ سَرَائِرُهْ

أَثِيبِي فَتًى حَقَّقْتِ قَوْلَ عَدُوِّهِ ... عَلَيْهِ وَقَامَتْ فِي الصَّدِيقِ مَعَاذِرُهْ

أُحِبُّكِ يَالَيْلَى عَلَى غَيْرِ رِيبَةٍ ... وَمَا خَيْرُ حُبٍّ لاَ تَعِفُّ ضَمَائِرُهْ

وأنشد :

يَجِيشُونَ فِي لَيْلَى عَلَيَّ وَلَمْ أَنَلْ ... مَعَ الْعَذْلِ مِنْ لَيْلَى حَرَامًا وَلاَ حِلاَّ

سِوَى أَنَّ حُبًّا لَوْ يَشَاءُ أَقَلَّهَا ... وَلَوْ تَبْتَغِي ظِلاًّ لَكَانَ لَهَا ظِلاَّ

أَلاَ حَبَّذَا أَطْلاَلُ لَيْلَى عَلَى الْبِلاَ ... وَمَا بَذَلَتْ لِي مِنْ نَوَالٍ وَإِنْ قَلاَّ

فَمَا يَتَمَادَى الْعَهْدُ إِلاَّ تَجَدَّدَتْ ... مَوَدَّتُهَا عِنْدِي وَإِنْ زَعَمَتْ أَنْ لاَ

وقال بعضهم : بينما المجنون ذات يوم جالس إذ مر به غراب ، فأنشأ يقول :

أَلاَ يَاغُرَابَ الْبَيْنِ إِنْ كُنْتَ هَابِطًا ... بِلاَدًا لِلَيْلَى فَالْتَمِسْ أَنْ تَكَلَّمَا

وَبَلِّغْ تَحِيَّاتِي إِلَيْهَا وَصَبْوَتِي ... وَكُنْ بَعْدَهَا عَنْ سَائِرِ النَّاسِ أَعْجَمَا

وقال : بينما المجنون ذات يوم فى خطرات جنونه وحيرته لايدرى أين يتوجه ، إذ لاح البرق له فوقف ساعة ثم قال :

أَلاَ لاَ أُحِبُّ السَّيْرَ إِلاَّ مُصَعِّدًا ... وَلاَ الْبَرْقَ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ يَمَانِيَا

عَلَى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ

وَإِنْ كُنْتُ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْيَأْسِ طَاوِيَا

إِذَا مَا تَمَنَّى النَّاسُ رَوْحاً وَرَاحَةً ... تَمَنَّيْتُ أَنْ أَلْقَاكِ يَالَيْلَ خَالِيَا
أَرَى سَقَماً فِي الْجِسْمِ أَصْبَحَ ثَاوِيًا ... وَحُـزْناً طَوِيلاً رَائِحاً ثُمَّ غَادِيَا
وَنَادَى مُنَادِي الْحُبِّ أَيْنَ أَسِيرُنَا ... لَعَلَّكَ مَا تَزْدَادُ إِلاَّ تَمَادِيَا
حَمَلْتُ فُؤَادِي إِنْ تَعَلَّقَ حُبُّهَا ... جَعَلْتُ لَهُ مِنْ زَفْرَةِ الْمَوْتِ فَادِيَا

وقال أيضاً :

لَقَدْ طَرَقَتْنِي أُمُّ خِشْفٍ وَإِنَّهَا ... إِذَا صَرَعَ الْقَوْمَ الْكَرَى لَطَرُوقُ(١)
أَقَامَ فَرِيقٌ مِنْ أُنَاسٍ بِوُدِّهِمْ ... بِذَاتِ الشَّرَى عِنْدِي وَبَاتَ فَرِيقُ
بِحَاجَةِ مَحْزُونٍ كَئِيبٍ فُؤَادُهُ ... رَهِينٌ بِبَيْضَاتِ الْحِجَالِ صَدِيقُ
تَحَيَّلْنَ أَنْ هَبَّتْ لَهُنَّ عَشِيَّةً ... جَنُوبٌ وَإِنْ لاَحَتْ لَهُنَّ بُرُوقُ
فَيَاكَبِدًا أَخْشَى عَلَيْهَا وَإِنَّهَا ... مَخَافَةَ هَضْبَاتِ اللِّوَى لَخَفُوقُ
كَأَنَّ فُضُولَ الرَّقْمِ حِينَ جَعَلْنُهَا ... غَدِيًّا عَلَى أُدُمِ الْجِمَالِ عُذُوقُ(٢)
وَفِيهِنَّ مَنْ نُجْلِ النِّسَاءِ بِحُلَّةٍ ... تَكَادُ عَلَى غُرِّ السَّحَابِ تَرُوقُ(٣)
هَبَانٌ فَأَمَّا الدِّعْصُ مِنْ أُخْرَيَاتِهَا ... فَوَعْثٌ وَأَمَّا خَصْرُهَا فَدَقِيقُ(٤)

---

(١) الخشف : ولد الغزال يطلق على الذكر والأنثى ، والجمع خشوف مثل حمل وحمول.

(٢) الأدم بفتحتين وبضمتين : جمع أديم وهو الجلد المدبوغ . العذوق : جمع عذق ، وهي النخلة بحملها .

(٣) غر السحاب من إضافة الصفة للموصوف أى السحاب الغر ، أى الأبيض . وتروق : تصفو .

(٤) الدعص بالكسر وبهاء : قطعة من الرمل مستديرة أو الكثيب منه المجتمع أو الصغير . الوعث : رمل رقيق تغيب فيه الأقدام .

وقال أيضاً :

أَقُولُ لِقَمْقَامِ بْنِ زَيْدٍ أَلاَ تَرَى سَنَا الْبَرْقِ يَبْدُو لِلْعُيُونِ النَّوَاظِرِ

فَإِنْ تَبْكِ لِلْبَرْقِ الَّذِى هَيَّجَ الْهَوَى

أُعِنْكَ وَإِنْ تَصْبِرْ فَلَسْتُ بِصَابِرِ

سَقَى اللهُ حَيًّا بَيْنَ صَارَةَ والْحِمَى

حِمَى الرَّشْفِ صَوْبَ الْمُدْجِنَاتِ الْمَوَاطِرِ

أَمِينُ وَادِى اللهِ مَنْ كَانَ مِنْهُمُ إِلَيهِمْ وَوَقَاهُمْ صُرُوفَ الْمَقَادِرِ

وقيل : إنه مرّ ذات يوم بدوحة مديدة الظل ، باسقة الأغصان ، وريقة الأفنان ، فى يوم غليل شديد القيظ ، فاستند إلى ساقها ، واستظل بظلها ، وقد خامرته الهموم ، وعلاه الجنون ، فرقدت عيناه ، فما انتبه إلا بصفير طائر على الشجرة فانتبه فزعا مرعوبا ، فأنشأ يقول :

لَقَدْ هَتَفَتْ فِى جُنْحِ لَيْلٍ حَمَامَةٌ عَلَى فَنَنٍ وَهْناً وَإِنِّى لَنَائِمُ

فَقُلْتُ اعْتِذَاراً عِنْدَ ذَاكَ وَإِنَّنِى لِنَفْسِى فِيمَا قَدْ أَتَيْتُ لَلاَئِمُ

أَأَزْعُمُ أَنِّى عَاشِقٌ ذُو صَبَابَةٍ بِلَيْلَى وَلاَ أَبْكِى وَتَبْكِى الْبَهَائِمُ

كَذَبْتُ وَبَيْتِ اللهِ لَوْ كُنْتُ عَاشِقاً لَمَا سَبَقَتْنِى بِالْبُكَاءِ الْحَمَائِمُ

وقال أيضاً :

هَوَى صَاحِبِى رِيحَ الشَّمَالِ إِذَا جَرَتْ

وَأَهْوَى لِنَفْسِى أَنْ تَهُبَّ جَنُوبُ

فَوَيْلِي عَلَى الْعُذَّالِ مَا يَتْرُكُونَنِي ... بِغَمِّي أَمَا فِي الْعَاذِلِينَ لَبِيبُ

يَقُولُونَ لَوْ عَزَّيْتَ قَلْبَكَ لَارْعَوَى ... فَقُلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ

دَعَانِي الْهَوَى وَالشَّوْقُ لَمَّا تَرَنَّمَتْ ... هَتُوفُ الضُّحَى بَيْنَ الْغُصُونِ طَرُوبُ

تُجَاوِبُ وُرْقاً قَدْ أَصَخْنَ لِصَوْتِهَا ... فَكُلٌّ لِكُلٍّ مُسْعِدٌ وَمُجِيبُ

فَقُلْتُ حَمَامَ الْأَيْكِ مَالَكَ بَاكِياً ... أَفَارَقْتَ إِلْفاً أَمْ جَفَاكَ حَبِيبُ

تُذَكِّرُنِي لَيْلَى عَلَى بُعْدِ دَارِهَا ... وَلَيْلَى قَتُولٌ لِلرِّجَالِ خَلُوبُ

وَقَدْ رَابَنِي أَنَّ الصِّبَا لَا تُجِيبُنِي ... وَقَدْ كَانَ يَدْعُونِي الصِّبَا فَأُجِيبُ

سَبَى الْقَلْبَ إِلَّا أَنَّ فِيهِ تَجَلُّدًا ... غَزَالٌ بِأَعْلَى الْمَاتِحَيْنِ رَبِيبُ

فَكَلِّمْ غَزَالَ الْمَاتِحَيْنِ فَإِنَّهُ ... بِدَائِي وَإِنْ لَمْ يَشْفِنِي لَطَبِيبُ

فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْحَصَا فَلَقَ الْحَصَا ... وَبِالرِّيحِ لَمْ يُسْمَعْ لَهُنَّ هُبُوبُ

وَلَوْ أَنَّنِي أَسْتَغْفِرُ اللّٰهَ كُلَّمَا ... ذَكَرْتُكِ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيَّ ذُنُوبُ

فَدُومِي عَلَى عَهْدٍ فَلَسْتُ بِزَائِلٍ ... عَنِ الْعَهْدِ مِنْكُمْ مَا أَقَامَ عَسِيبُ

وقال أيضاً:

أَمُوتُ إِذَا شَطَّتْ وَأَحْيَا إِذَا دَنَتْ ... وَتَبْعَثُ أَحْزَانِي الصَّبَا وَنَسِيمُهَا

فَمِنْ أَجْلِ لَيْلَى تُولَعُ الْعَيْنُ بِالْبُكَا ... وَتَأْوِي إِلَى نَفْسٍ كَثِيرٍ هُمُومُهَا

كَأَنَّ الْحَشَا مِنْ تَحْتِهِ عَلِقَتْ بِهِ ... يَدٌ ذَاتُ أَظْفَارٍ فَأَدْمَتْ كُلُومُهَا

قيل : إن المجنون صحب يوما أصحاب إبل واستروح بهم فنزلوا منزلاً لم يجدوا لإبلهم فيه ماء قد أجهدهم الكلال فباتوا ليلتهم ، فلما نوّر الصباح قدح أحدهم ناراً فكلما التهبت أطفأتها الريح والمطر ، فلما طال ذلك عليهم أنشأ المجنون يقول :

يَا مُوقِدَ النَّارِ يُذْكِيهَا وَيُخْمِدُهَا ... قَرُّ الشِّتَاءِ بِأَرْيَاحٍ وَأَمْطَارِ
قُمْ فَاصْطَلِ النَّارَ مِنْ قَلْبِي مُضَرَّمَةً ... فَالشَّوْقُ يُضْرِمُهَا يَا مُوقِدَ النَّارِ
وَيَا أَخَا الذَّوْدِ قَدْ طَالَ الظَّمَاءُ بِهَا ... لَمْ تَدْرِ مَا الرِّيُّ مِنْ جَدْبٍ وإِقْتَارِ
رُدَّ المَطِيَّ عَلَى عَيْنِي وَمَحْجِرِهَا ... تَرْوِي المَطِيَّ بِدَمْعٍ مُسْبِلٍ جَارِ
يَا مُزْمِعَ البَيْنِ إِنْ جَدَّ الرَّحِيلُ فَلَا ... كَانَ الرَّحِيلُ فَإِنِّي غَيْرُ صَبَّارِ

وقال :

أَقُولُ لِأَصْحَابِي وَقَدْ طَلَبُوا الصِّلَا ... تَعَالَوْا اصْطَلُوا إِنْ خِفْتُمُ القَرَّ مِنْ صَدْرِي
فَإِنَّ لَهِيبَ النَّارِ بَيْنَ جَوَانِحِي ... إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى أَحَرُّ مِنَ الجَمْرِ
فَقَالُوا نُرِيدُ المَاءَ نَسْقِي وَنَسْتَقِي ... فَقُلْتُ تَعَالَوْا فَاسْتَقُوا المَاءَ مِنْ نَهْرِي
فَقَالُوا وَأَيْنَ النَّهْرُ قُلْتُ مَدَامِعِي ... سَيُغْنِيكُمُ دَمْعُ الجُفُونِ عَنِ الحَفْرِ
فَقَالُوا وَلِمْ هَذَا فَقُلْتُ مِنَ الهَوَى ... فَقَالُوا لَحَاكَ اللهُ قُلْتُ اسْمَعُوا عُذْرِي
أَلَمْ تَعْرِفُوا وَجْهاً لِلَيْلَى شُعَاعُهُ ... إِذَا بَرَزَتْ يُغْنِي عَنِ الشَّمْسِ وَالبَدْرِ
يَمُرُّ بِوَهْمِي خَاطِرٌ فَيَؤُدُّهَا ... وَيَجْرَحُهَا دُونَ العِيَانِ لَهَا فِكْرِي

مُنَعَّمَةٌ لَوْ قَابَلَ البَدْرُ وَجْهَهَا … لَكَانَ لَهُ فَضْلٌ مُبِينٌ عَلَى البَدْرِ

هِلَالِيَّةُ الأَعْلَى مُطَلْخَمَةُ الذُّرَا … مُرَجْرَجَةُ السُّفْلَى مُهَفْهَفَةُ الْخَصْرِ (١)

مُبَتَّلَةٌ هَيْفَاءُ مَهْضُومَةُ الْحَشَا … مُوَرَّدَةُ الْخَدَّيْنِ وَاضِحَةُ الثَّغْرِ

مُدَمْلَجَةُ السَّاقَيْنِ بَضٌّ بَضِيضَةٌ … مُفَلَّجَةُ الأَنْيَابِ مَعْسُولَةُ الْخَمْرِ

فَقَالُوا أَمَجْنُونٌ فَقُلْتُ مُوَسْوِسٌ … أَطُوفُ بِظَهْرِ البِيدِ قَفْرًا إِلَى قَفْرِ

فَلَا مَلَكُ المَوْتِ المُرِيحُ يُرِيحُنِي … وَلَا أَنَا ذُو عَيْشٍ وَلَا أَنَا ذُو صَبْرِ

وَصَاحَتْ بِوَشْكِ البَيْنِ مِنْهَا حَمَامَةٌ … تَغَنَّتْ بِلَيْلٍ فِي ذُرَى نَاعِمٍ نَضْرِ

عَلَى دَوْحَةٍ يَسْتَنُّ تَحْتَ أُصُولِهَا … نَوَاقِعُ مَاءٍ مَدَّهُ رَصَفُ الصَّخْرِ

مُطَوَّقَةٌ طَوْقًا تَرَى فِي خِطَامِهَا … أُصُولَ سَوَادٍ مُطْمَئِنٍّ عَلَى النَّحْرِ

أَرَنَّتْ بِأَعْلَى الصَّوْتِ مِنْهَا فَهَيَّجَتْ … فُؤَادًا مُعَنًّى بِالْمَلِيحَةِ لَوْ تَدْرِي

فَقُلْتُ لَهَا عُودِي فَلَمَّا تَرَنَّمَتْ … تَبَادَرَتِ الْعَيْنَانِ سَحًّا عَلَى الصَّدْرِ

كَأَنَّ فُؤَادِي حِينَ جَدَّ مَسِيرُهَا … جَنَاحُ غُرَابٍ رَامَ نَهْضًا إِلَى الْوَكْرِ

فَوَدَّعْتُهَا وَالنَّارُ تَقْدَحُ فِي الْحَشَا … وَتَوْدِيعُهَا عِنْدِي أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ

وَرُحْتُ كَأَنِّي يَوْمَ رَاحَتْ جِمَالُهُمْ … سُقِيتُ دَمَ الحَيَّاتِ حِينَ انقضى عمرى

أَبِيتُ صَرِيعَ الحُبِّ دَامٍ مِنَ الهَوَى … وَأُصْبِحُ مَنْزُوعَ الْفُؤَادِ مِنَ الصَّدْرِ

---

(١) من الطلخ ، وهو الذى يبقى فى أسفل الحوض والغدير ، والمعنى أنها سوداء الشعر .

رَمَتْنِي يَدُ الْأَيَّامِ عَنْ قَوْسِ غِـرَّةٍ
بِسَهْمَيْنِ فى أَعْشَارِ قَلْبِي وَفى سحْرِى
بِسَهْمَيْنِ مَسْمُومَيْنِ مِنْ رَأْسِ شَاهِقٍ فَغُودِرْتُ مُحْمَرَّ التَّرَائِبِ وَالنَّحْرِ
مُنَاىَ ! دَعِينِي فى الْهَوَى مُتَعَلِّقاً فَقَدْ مِتُّ إِلاَّ أَنَّنِي لَمْ يُزَرْ قَبْرِى
فَلَوْ كُنْتِ مَاءً كُنْتِ مِنْ مَاءِ مُزْنَةٍ
وَلَوْ كُنْتِ نَوْمًا كُنْتِ مِنْ غَفْوَةِ الفَجْرِ
وَلَوْ كُنْتِ لَيْلاً كُنْتِ لَيلَ تَوَاصُلٍ
وَلَوْ كُنْتِ نَجماً كُنْتِ بَدْرَ الدُّجَى يَسْرِى
عَلَيْكِ سَلاَمُ اللهِ يَاغَايَةَ الْمُنَى وَقَاتِلَتِي حَتَّى الْقِيَامَةِ وَالحَشْرِ

قال :

ونظر ذات يوم إلى طير يحلّق فى جوّ السماء ، فأتبعه بصره ، وأنشأ يقول :

أَلاَ أَيُّهَا الطَّيْرُ الْمُحَلِّقُ غَادِيَا تَحَمَّلْ سَلاَمِي لاَ تَذَرْنِي مُنَادِيَا
تَحَمَّلْ هَدَاكَ اللهُ مِنِّي رِسَالَةً إِلَى بَلَدٍ إِنْ كُنْتَ بِالْأَرْضِ هَادِيَا
إِلَى قَفْرَةٍ مِنْ نَحْوِ لَيْلَى مُضِلَّةٍ بِهَا الْقَلْبُ مِنِّي مُوثَقٌ وَفؤادِيَا
أَلاَ لَيْتَ يَوْمًا حَلَّ بِي مِنْ فِرَاقِكُمْ تَزَوَّدْتُ ذَاكَ الْيَوْمَ آخِرَ زَادِيَا

قال موسى بن جعفر :

خرج المجنون لما أصابه ما أصابه حتى أتى الشام ، فسأل عن أرض

بني عامر ، فقيل وأين أنت من أرض بني عامر ؟ عليك بنجم كذا ، فرجع إلى أرض بني عامر ، ووقف عند جبل يقال له ثوبان فقال :

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَانِ حِينَ رَأَيْتُهُ ... وَهَلَّلَ لِلرَّحْمٰنِ حِينَ رَآنِي
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا رَأَيْتُهُ ... وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ وَدَعَانِي
فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ ... حَوَالَيْكَ فِي خَصْبٍ وَطِيبِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا واسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ ... وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْقَى مَعَ الْحَدَثَانِ
وَإِنِّي لَأَبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَذَرِي غَدًا ... فِرَاقَكَ وَالْحَيَّانِ مُؤْتَلِفَانِ
سِجَالاً وَهَتَّانًا وَوَبْلاً وَدِيمَةً ... وَسَحًّا وتَسْجَامًا إِلَى هَمَلَانِ

قال الوالبي :

ذكر أن أباه الملوح وإخوته ، ساروا إلى الصحراء ليأخذوه ويردّوه إلى الحي وأهل بيته ، وذلك بعد ما نحل جسمه واسودّ وجهه ، وجف جلده على عظامه ، فلما وردوا عليه لقوه قاعداً على تلّ من رمل وهو يخط بأصبعه ، فلما دنوا منه نفر ، فناداه أبوه: ياقيس ! أنا أبوك الملوح وهذا أخوك ، فطب نفساً وأبشر ، فقد وعدني أبوها أن يزوجكها ، ويردك من نفارك ، وينزل عند حكمك ورضاك ، فأقبل إليهم ، وأنس بهم ، فقال له أبوه: ياقيس ! أما تتقي الله وتراقبه ، كم تطيع هواك وتعصيني ! فقد كنتَ أرجي ولدي ، أفضّلك عليهم وأوثرك ، فأخلفت ظني ، ولم تحقق أملي ، فليت شعري ما أراها ممن يوصف بالجمال والحسن ، وقد بلغني أنها

فوهاء قصيرة جاحظة العينين شهلة سمجة ، فعُدْ عن ذكرها ، ولك فى قومك من هو خير لك منها ، فلما سمع ثلبه فيها أنشأ يقول :

يَقُولُ لِيَ الْوَاشُونَ لَيْلَى قَصِيرَةٌ ... فَلَيْتَ ذِرَاعاً عَرْضُ لَيْلَى وَطُولُهَا
وَإِنَّ بِعَيْنَيْهَا لَعَمْرُكَ شَهْلَةً ... فَقُلْتُ كِرَامُ الطَّيْرِ شُهْلٌ عُيُونُهَا
وَجَاحِظَةٌ فَوْهَاءُ لَا بَأْسَ إِنَّهَا ... مِنًى كَبِدِي بَلْ كُلُّ نَفْسِي وَسُولُهَا
فَدَقَّ صِلَابَ الصَّخْرِ رَأْسُكَ سَرْمَدًا ... فَإِنِّي إِلَى حِينِ الْمَمَاتِ خَلِيلُهَا

فلما سمعوا هذه الأبيات تركوه وانصرفوا قانطين ، فبينا هو ذات يوم نائم إذ مرّ به رجل فقال :

أَلَا إِنَّ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ ... وَأَنْتَ خَلِيُّ الْبَالِ تَلْهُو وَتَرْقُدُ
فَلَوْ كُنْتَ يَا مَجْنُونُ تَضْنَى مِنَ الْهَوَى ... لَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ الْمُسَهَّدُ !!

فخر المجنون مغشيًّا عليه لما سمع ذلك ، فلما أفاق أنشأ يقول :

يَقُولُونَ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ ... فَمَا لَكَ لَا تَضْنَى وَأَنْتَ صَدِيقُ
سَقَى اللهُ مَرْضَى بِالْعِرَاقِ فَإِنَّنِي ... عَلَى كُلِّ مَرْضَى بِالْعِرَاقِ شَفِيقُ
فَإِنْ تَكُ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةً ... فَإِنِّي فِي بَحْرِ الْحُتُوفِ غَرِيقُ
أَهِيمُ بِأَقْطَارِ الْبِلَادِ وَعَرْضِهَا ... وَمَالِي إِلَى لَيْلَى الْغَدَاةَ طَرِيقُ
كَأَنَّ فُؤَادِي فِيهِ مُورٍ بِقَادِحٍ ... وَفِيهِ لَهِيبٌ سَاطِعٌ وَبُرُوقُ
إِذَا ذَكَرَتْهَا النَّفْسُ مَاتَتْ صَبَابَةً ... لَهَا زَفْرَةٌ قَتَّالَةٌ وَشَهِيقُ

سَقَتْنِي شَمْسٌ يُخْجِلُ الْبَدْرَ نُورُهَا   وَيَكْسِفُ ضَوْءَ الْبَرْقِ وَهُوَ بَرُوقُ
عَرَابِيَّةُ الْفَرْعَيْنِ بَدْرِيَّةُ السَّنَا   وَمَنْظَرُهَا بَادِي الْجَمَالِ أَنِيقُ
وَقَدْ صِرْتُ مَجْنُونًا مِنَ الْحُبِّ هَائِمًا   كَأَنِّيَ عَانٍ فِي الْقُيُودِ وَثِيقُ
أَظَلُّ ذَرِيحَ الْعَقْلِ مَا أَطْعَمُ الْكَرَى   وَلِلْقَلْبِ مِنِّي أَنَّةٌ وَخُفُوقُ
بَرَى حُبُّهَا جِسْمِي وَقَلْبِي وَمُهْجَتِي   فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَعْظُمٌ وَعُرُوقُ
فَلَا تَعْذِلُونِي إِنْ هَلَكْتُ تَرَحَّمُوا   عَلَيَّ فَفَقْدُ الرُّوحِ لَيْسَ يَعُوقُ
وَخُطُّوا عَلَى قَبْرِي إِذَا مِتُّ وَاكْتُبُوا
قَتِيلُ لِحَاظٍ مَاتَ وَهُوَ عَشِيقُ
إِلَى اللهِ أَشْكُو مَا أُلَاقِي مِنَ الْهَوَى   بِلَيْلَى فَفِي قَلْبِي جَوًى وَحَرِيقُ

وقال أيضاً:

أَقُولُ لِظَبْيٍ مَرَّ بِي وَهْوَ رَاتِعٌ   أَأَنْتَ أَخُو لَيْلَى فَقَالَ يُقَالُ
أَيَا شِبْهَ لَيْلَى إِنَّ لَيْلَى مَرِيضَةٌ   وَأَنْتَ صَحِيحٌ إِنَّ ذَا لَمُحَالُ

وقال أيضاً:

يَقُولُونَ لَيْلَى بِالْعِرَاقِ مَرِيضَةٌ   فَأَقْبَلْتُ مِنْ مِصْرٍ إِلَيْهَا أَعُودُهَا
فَوَاللهِ مَا أَدْرِي إِذَا أَنَا جِئْتُهَا   أَأُبْرِئُهَا مِنْ دَائِهَا أَمْ أَزِيدُهَا

(وروى) أن رهطا من بنى أسد خرجوا إلى بلاد الشام فى بعض تجاراتهم فعثروا بالمجنون، فقالوا له: ياقيس! مامنع أباليلى أن يتلافى فى أمرك ويتداركه، إلا أن قد صار مشهوراً فى الأمصار ذكر ما دار بينكما، من

الرفث والفسوق ، فهلا كففت نفسك عن المعاصى ، وزجرتها عن القذع والأمور الفظيعة ، حتى يدوم لك صفاء المودة ، وغضارة النعمة ، خالياً عما أنت بصدده ، فلما سمع مقالتهم بكى بكاء متوجع ، وأنشأ يقول :

أَلاَ أَيُّهَا القَوْمُ الَّذِينَ وَشَوْا بِنَا عَلَى غَيْرِ مَا تقوى الْإِلٰهِ وَلاَ بِرِّ
أَلاَ يَنْهَكُمْ عَنَّا تُقَاكُمْ فَتَنْتَهُوا
أَمْ أَنْتُمْ أُنَاسٌ قَدْ جُبِلْتُمْ عَلَى الكُفْرِ
تَعَالَوْا نَقِفْ صَفَّيْنِ مِنَّا وَمِنْكُمُ وَنَدْعُو إِلٰهَ النَّاسِ فِي وَضَحِ الفَجْرِ
عَلَى مَنْ يَقُولُ الزُّورَ أَوْ يَطْلُبُ الخَنَا
وَمَنْ يَقْذِفُ الخُودَ الحَصَانَ وَلاَ يَدْرِى
حَلَفْتُ بِمَنْ صَلَّتْ قُرَيْشٌ وَجَمَّرَتْ لَهُ بِمِنًى يَوْمَ الْإِفَاضَةِ وَالنَّحْرِ
وَمَا حَلَقُوا مِنْ رَأْسِ كُلِّ مُلَبٍّ صَبِيحَةَ عَشْرٍ قَدْ مَضَيْنَ مِنَ الشَّهْرِ
لَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنِّى حَصَانًا بَرِيئَةً مُطَهَّرَةً لَيْلَى مِنَ الفُحْشِ وَالنُّكْرِ
مِنَ الخَفِرَاتِ البِيضِ لم تَدْرِ ما الخَنَا
ولم تُلْفَ يوما بَعْدَ هَجْعَتِهَا تَسْرِى
وَلاَ سَمِعُوا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ مِثْلَهَا ولا بَرَزَتْ فى يَوم أَضْحَى وَلاَ فِطْرِ
بَرَهْرَهَةٌ كَالشَّمْسِ فى يوم صَحْوِهَا مُنَعَّمَةٌ لم تَخْطُ شِبْرًا مِنَ الخِدْرِ (١)
هى البَدْرُ حُسْناً والنِّسَاءُ كَوَاكِبٌ فَشَتَّانَ ما بَيْنَ الكَوَاكب والبَدْرِ
يقولون مجنونٌ يَهِيمُ بِذِكْرِهَا وَوَاللّٰهِ مَا بِى مِنْ جُنُونٍ ولاَ سِحْرِ

(١) البرهرهة : المرأة البيضاء الشابة والناعمة الملمس .

إذَا ما قَرَضْتُ الشِّعْرَ فى غير ذِكْرِها
أَبَى وأَبِيكُمْ أَنْ يطاوعَنِى شِعْرِى

فَلاَ نعِمتْ بَعْدِى وَلاَ عِشْتُ بَعْدَهاَ ... وَدَامَتْ لنَاالدُّنياَ إلَى مُلْتَقَى الحَشْرِ
عليها سَلاَمُ اللهِ من ذى صَبَابَةٍ ... وَصَبٍّ مُعَنًّى بالوساوِس وَالفِكْرِ
ليَالِىَ أَعْطَيْتُ البَطالَة مِقْوَدِى ... تمُرُّ اللَّيالِى والشُّهُورُ وَلا أَدْرِى
مَضَى لِى زَمَانٌ لو أُخَيَّرُ بَيْنَهُ ... وَبَيْنَ حَيَاتِى خَالِدًا أبدَ الدَّهْرِ
لَقُلْتُ ذَرُونِى ساعَةً وَكَلاَمهَا ... على غَفْلَةِ الواشين ثم اقْطَعُوا عُمْرِى

ثم جعل يدور هائما ، قد اشتد وسواسه وجنونه ، إذ مر بعقاب ساقط على وكره ، فدنا منه وأنشأ يقول :

ألا يا عُقَابَ الوَكْرِ وَكْرِ ضَرِيَّةٍ
سُقِيتِ الغوَادِى من عُقَابٍ على وَكْرِ

أَبِينِى لَنَا لا زَالَ رِيشُكِ نَاعِمًا ... ولاَ زِلْتِ فى صَيْدٍ مُخَضَّبَةَ الظُّفْرِ
أبِينى لنا قَدْ طَالَ ما قد تَرَكْتنَا ... بِعَمْيَاءَ لاندْرِى أَنُصْبِحُ أَمْ نَسْرِى

وَقَفْتُ على مَرَّانَ أَنْشُدُ نَاقَتِى
وَمَا هَلَكَتْ لِى مِنْ قَلُوصٍ وَلاَ بَكْرِ

وَمَا أَنْشُدُ البعْرَانَ إلاَّ صَبَابَةً ... بِوَاضِحَةِ الخَدَّيْنِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ
مُفَلَّجَةِ الأَنْيَابِ لَوْ أَنَّ رِيقَهَا ... يُدَاوَى بِهِ المَوْتَى لقَامُوا مِنَ القَبْرِ

إذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى أُسَرُّ بِذِكْرِهَا
كَمَا انْتَفَضَ العُصْفُورُ مِنْ بَلَلِ القَطْرِ

فَقَالَ جَمِيعُ النَّاسِ لَمَّا نَشَدْتُهَا بَلَى وَفَرِيقٌ قَالَ وَاللهِ مَا نَدْرِى
تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بلَيْلَى عَنِ الْهَوى كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الخَمْرِ بِالخَمْرِ
أَلاَ زَعَمَتْ لَيْلَى بِأَنْ لاَ أُحِبُّهَا بَلَى وَلَيَالِى العَشْرِ والشَّفْعِ وَالوَتْرِ
بَلَى وَالَّذِى لاَ يَعْلَمُ الغَيْبَ غَيْرُهُ بِقُدْرَتِهِ تَجْرِى السَّفَائِنُ فِى البَحْرِ
بَلَى وَالَّذِى نَادَى مِنَ الطُّورِ عَبْدَهُ وَعَظَّمَ أَيَّامَ الذَّبِيحَةِ وَالنَّحْرِ
لَقَدْ فُضِّلَتْ لَيْلَى عَلَى النَّاسِ مِثْلَ مَا عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فُضِّلَتْ لَيْلَةُ القَدْرِ

وقال :

فَوَاللهِ مَا أَبْكِى عَلَى يَوْمِ مَيْتَتِى وَلٰكِنَّنِى مِنْ وَشْكِ بَيْنِكِ أَجْزَعُ
فَصَبْراً لِأَمْرِ اللهِ إِنْ حَانَ يَوْمُنَا فَلَيْسَ لِأَمْرٍ حَمَّهُ اللهُ مَدْفَعُ

قال على بن صالح :

حججت مع أبي عيسى بن الرشيد، فبينا نسرى ليلا ، إذ نحن بأعرابى يترنم بأبيات، ماسمعت والله أحسن منها، ونغمات ما كدت أسمع مثلها وهى :

أَلاَ هَلْ إِلَى شَمِّ الْخُزَامَى (١) وَنَظْرَةٍ إِلَى قَرْقَرَى (٢) قَبْلَ المَمَاتِ سَبِيلُ
فَأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ الْحُجَيْلاَءِ شَرْبَةً يُدَاوَى بِهَا قَبْلَ المَمَاتِ عَلِيلُ (٣)

(١) الخزامى كحبارى : خيرىّ البرّ، زهره أطيب الأزهار نفحة ، والتبخر به يذهب كل رائحة منتنة، واحتماله فى فرزجة محبل وشربه مصلح للكبد والطحال والدماغ البارد
(٢) القرقرة : اسم موضع .
(٣) الحجيلاء: الماء الذى لاتصيبه الشمس ويستعمل مقصورا .

فَيَا أَثلَاتِ[1] القَاعِ قَدْ مَلَّ صُحْبَتِي مَسِيرِي فَهَلْ فِي ظِلِّكُنَّ مَقِيلُ
وَيَا أَثلَاتِ القَاعِ ظَاهِرُ مَا بَدَا بِجِسْمِي عَلَى مَا فِي الفُؤَادِ دَلِيلُ
وَيَا أَثلَاتِ القَاعِ مِنْ بَيْنِ تُوضَحٍ حَنِينِي إِلَى أَفيَائِكُنَّ طَوِيلُ
وَيَا أَثلَاتِ القَاعِ قَلْبِي مُوَكَّلٌ بِكُنَّ وَجَدْوَى خَيْرِكُنَّ قَلِيلُ
أَرُومُ انْحِدَارًا نَحْوَهَا فَيَرُدُّنِي وَيَمْنَعُنِي دَيْنٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ
أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ إِذْ لَسْتُ رَاجِعاً
إِلَيْكِ فَحُزْنِي فِي الفُؤَادِ دَخِيلُ

وقال :

أَحُجَّاجَ بَيْتِ اللهِ فِي أَيِّ هَوْدَجٍ وَفِي أَيِّ خِدْرٍ مِنْ خُدُورِكُمُ قَلْبِي
أَأَبْقَى أَسِيرَ الحُبِّ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ
وَحَادِيكُمُ يَحْدُو بِقَلْبِيَ فِي الرَّكْبِ

وقال :

وَمُغْتَرِبٍ بِالمَرْجِ يَبْكِي بِشَجْوِهِ وَقَدْ غَابَ عَنْهُ المسعِدُونَ عَلَى الحُبِّ
إِذَا مَا أَتَاهُ الرَّكْبُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ تَنَفَّسَ يَسْتَشْفِي بِرَائِحَةِ الرَّكْبِ

فقال أبو عيسى : عليّ بالرجل ، فتفرقت الخيل فى طلبه يَمنة ويَسرة ، فما كان إلاهنيهة حتى أتى برجل ضئيل الجسم ، ناحل البدن ، عريان ،

---

(١) الأثلات : جمع أثلة واحدة الأثل ، وهو الشجر . القاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

فقال له : من أنت؟ لأمك الهبل ! فوالله ما تنهنه أن قال أسرع من مخرج نفْسه وارتداد طرْفه :

أَنَا الْوَامِقُ الْمَشْغُوفُ وَاللهُ نَاصِرِى   وَمُنْتَقِمِى مِمَّنْ يَجُورُ وَيَظْلِمُ
أَنَا النَّاحِلُ الْمَهْمُومُ وَالْقَائِمُ الَّذِى   أُرَاعِى الثُّرَيَّا وَالْخَلِيُّونَ نُوَّمُ
أَظَلُّ بِحُزْنٍ دَائِمٍ وَتَحَسُّرٍ   وَأَشْرَبُ كَأْسًا فِيهِ سُمٌّ وَعَلْقَمُ
فَحَتَّامَ يَا لَيْلَى فُؤَادِى مُعَذَّبُ   بِرُوحِى تَقْضِى مَا تُحِبُّ وَتَحْكُمُ
لَعَمْرِى مَا لاَقَى جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ   كَوَجْدِى بِلَيْلَى لاَ وَلَمْ يَلْقَ مُسْلِمُ
وَلَمْ يَلْقَ قَابُوسٌ وَقَيْسٌ وَعُرْوَةٌ   وَلَمْ يَلْقَهُ قَبْلِى فَصِيحٌ وَأَعْجَمُ
صَبَا يُوسُفٌ وَاسْتَشْعَرَ الْحُبَّ قَلْبُهُ   وَلاَ كَادَ دَاوُدٌ مِنَ الْحُبِّ يَسْلَمُ
وَبِشْرٌ وَهِنْدٌ ثُمَّ سَعْدٌ وَوَامِقٌ   وَتَوْبَةُ أَضْنَاهُ الْهَوَى الْمُتَقَسِّمُ
وَهَارُوتُ لاَقَى مِنْ جَوَى الْحُبِّ سَطْوَةً   وَمَارُوتُ فاجاه البــــلاء المصمِّمُ
ولم يخلُ منه المصطفى سيدُ الورى   أبُو القاسمِ الزاكى النبيُّ المكرَّمُ
أبيتُ صريعَ الحبِّ باكٍ من الهوَى   ودمعى على خدِّى يفيض ويَسْجُمُ
ولولا طُروقُ الليل أودتْ بنفسِه   مُنعَّمَةُ اللحْظَيْنِ تُبْرِى وتُسْقِمُ
إذا هى زادتِ النَّوى زادَ فى الهوى   فلاَ قلْبُه يسْلُو ولا هِىَ ترْحَمُ
أعارتْه أنفاسَ الصَّبا بك صَبْوَةٌ   لهَا بَيْنَ جَنْبَيْهِ سَعِيرٌ مُضْرِمُ
ألاَ إنَّ دمعَ الصبِّ عمَّا يُجِنّهُ   وإنْ لم يفُهْ يوْمًا بِهِ مُتَكَلِّمُ

لسانِي عَيِيٌّ في الهَوى وهوَ نَاطِقٌ ... ودَمعِي فَصيحٌ في الهوَى وَهوَ أعجمُ
وَكَيْفَ يَطِيقُ الصَّبُّ كِتْمانَ سِرِّهِ ... وَهَلْ يَكْتُمُ الْوَجْدَ امْرُؤٌ وَهْوَ مُغْرَمُ
عُذَيْرِى مِنْ طَيْفٍ أَتَى بَعْدَ مَوْهِنٍ ... بِرَامَةَ حِزْوى عَرْفُهُ يَتَقَدَّمُ
تَنَفَّسَ رَوْضٌ جَادَهُ مَاءُ مُزْنَةٍ ... وَأَطْرَافُهُ تَبْكِي النَّدَى ثُمَّ تَبْسِمُ

قال له أبو عيسى : أما تحنّ إلى أكناف الحمى ؟ ويرتاح قلبك إلى أقطار نجد وبلاد ليلى ، فزفر زفرة ، ثم رنّ بعدها وقال :

تَعَزَّ بِصَبْرٍ لاَ وَجَدِّكَ لاَ تَرَى ... بِشَامِ الْحِمَى إحْدَى اللَّيَالِي الْغَوَابِرِ
كَأَنَّ فُؤَادِي مِنْ تَذَكُّرِهِ الْحِمَى ... وَأَهْلِ الْحِمَى يَهْفُو بِهِ رِيشُ طَائِرِ

قال عليّ : فوالله لقد أبكانا جميعاً ، ثم أمر له أبو عيسى بأثواب شريفة ودراهم كثيرة ، فقلنا : أيد الله الأمير إنه لمجنون ، ما يلبس ثوباً إلا قدّه ورماه ، فعد عنه إلى ما سواه ، وسله أن ينشدك بعض أشعاره ، فقلنا له : هل لك أن تروى لمولانا الأمير شيئاً من شعرك ؟ فطفق يبكى و يقول :

وإِنِّي وَإِنْ لَمْ آتِ لَيْلَى وَأَهْلَهَا ... لَبَاكٍ بُكَا طِفْلٍ عَلَيْهِ التَّمَائِمُ
بُكًا لَيْسَ بِالنَّزْرِ القَلِيلِ وَدَائِمًا ... كَمَا الهَجْرِ مِنْ لَيْلَى عَلَى الدَّهْرِ دَائِمُ
هَجَرْتُكِ أَيَّامًا بِذِي الغَمْرِ إنَّنِي ... عَلَى هَجْرِ أَيَّامٍ بِذِي الغَمْرِ نَادِمُ
فَلَمَّا مَضَتْ أَيَّامُ ذِي الغَمْرِ وَارْتَمَى ... بِيَ الهَجْرُ لاَ مَتْنِي عَلَيْكِ اللَّوَائِمُ

وَإِنِّي وَذَاكَ الهَجْرَ مَا تَعْلَمِينَهُ … كَعَازِبَةٍ عَنْ طِفْلِهَا وَهْيَ رَائِمُ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنِّي أَهِيمُ بِذِكْرِهَا … عَلَى حِينِ لَا يَبْقَى عَلَى الوَصْلِ هَائِمُ
أَظَلُّ أُمَنِّي النَّفْسَ إِيَّاكِ خَالِيًا … كَمَا يَتَمَنَّى بَارِدَ المَاءِ صَائِمُ

وقال :

أَلَا أَيُّهَا القَلْبُ اللَّجُوجُ المُعَذَّلُ
أَفِقْ عَنْ طِلَابِ البِيضِ إِنْ كُنْتَ تَعْقِلُ

أَفِقْ قَدْ أَفَاقَ الوَامِقُونَ وَإِنَّمَا … تَمَادِيكَ فِي لَيْلَى ضَلَالٌ مُضَلِّلُ
سَلَا كُلُّ ذِي وُدٍّ عَنِ الحُبِّ وَارْعَوَى … وَأَنْتَ بِلَيْلَى مُسْتَهَامٌ مُوَكَّلُ
فَقَالَ فُؤَادِي مَا اجْتَرَرْتُ مَلَامَةً … إِلَيْكَ وَلَكِنْ أَنْتَ بِاللَّوْمِ تَعْجَلُ
فَعَيْنَكَ لُمْهَا إِنَّ عَيْنَكَ حَمَّلَتْ … فُؤَادَكَ مَا يَعْيَا بِهِ المُتَحَمِّلُ
لَحَا اللهُ مَنْ بَاعَ الخَلِيلَ بِغَيْرِهِ … فَقُلْتُ نَعَمْ حَاشَاكَ إِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ
وَقُلْتُ لَهَا بِاللهِ يَا لَيْلُ إِنَّنِي … أَبَرُّ وَأَوْفَى بِالعُهُودِ وَأَوْصَلُ
هَبِي أَنَّنِي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا عَلِمْتِهِ … وَلَا ذَنْبَ لِي يَا لَيْلُ فَالصَّفْحُ أَجْمَلُ
فَإِنْ شِئْتِ هَاتِي نَازِعِينِي خُصُومَةً … وَإِنْ شِئْتِ قَتْلًا إِنَّ حُكْمَكِ أَعْدَلُ
نَهَارِي نَهَارٌ طَالَ حَتَّى مَلِلْتُهُ … وَلَيْلِي إِذَا مَا جَنَّنِي اللَّيْلُ أَطْوَلُ
وَكُنْتُ كَذِئْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً … لِبُهْمٍ رَعَتْ وَالذِّئْبُ غَرْثَانُ مُرْمِلُ
أَلَسْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ شَتَمْتِنِي … فَقَالَتْ مَتَى ذَا قَالَ ذَا عَامُ أَوَّلُ
فَقَالَتْ وُلِدْتُ العَامَ بَلْ رُمْتَ كِذْبَةً … فَهَاكَ فَكُلْنِي لَا يَهْنِيكَ مَأْكَلُ

وَكُنْتُ كَذَبَّاحِ العَصَافِيرِ دَائِباً ... وَعَيْنَاهُ مِنْ وَجْدٍ عَلَيْهِنَّ تَهْمِلُ
فَلَا تَنْظُرِى لَيْلَى إِلَى العَيْنِ وَانْظُرِى ... إِلَى الكَفِّ مَاذَا بِالْعَصَافِيرِ تَفْعَلُ

وقال :

أَقُولُ لِصَاحِبِى وَالعِيسُ تَهْوِى ... بِنَا بَيْنَ المُنِيفَةِ فَالضِّمَارِ
تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عِرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عِرَارِ
أَلَا يَا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ ... وَرَيَّا رَوْضَةٍ غِبَّ القِطَارِ
وَأَهْلُكَ إِذْ يَحِلُّ الحَىُّ نَجْدًا ... وَأَنْتَ عَلَى زَمَانِكَ غَيْرُ زَارِ
شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا ... بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارِ
فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرُ لَيْلٍ ... وَأَطْوَلُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

وقال :

مِنْ أَجْلِ سَارٍ فِى دُجَى اللَّيْلِ لَامِعُ ... جَفَوْتَ حَذَارَ البَيْنِ لِينَ المَضَاجِعِ
عَلَامَ تَخَافُ البَيْنَ وَالبَيْنُ نَافِعٌ ... إِذَا كَانَ قُرْبُ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعِ
إِذَا لَمْ تَزَلْ مِمَّنْ تُحِبُّ مُرَوَّعًا ... بِغَدْرٍ فَإِنَّ البَيْنَ لَيْسَ بِرَائِعِ

وقال :

سَأَبْكِى عَلَى مَا فَاتَ مِنِّى صَبَابَةً ... وَأَنْدُبُ أَيَّامَ السُّرُورِ الذَّوَاهِبِ
وَأَمْنَعُ عَيْنِى أَنْ تَلَذَّ بِغَيْرِكُمْ ... وَإِنِّى وَإِنْ جَانَبْتُ غَيْرُ مُجَانِبِ
وَخَيْرُ زَمَانٍ كُنْتُ أَرْجُو دُنُوَّهُ ... رَمَتْنِى عُيُونُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَأَصْبَحْتُ مَرْحُومًا وَكُنْتُ مُحَسَّدًا ... فَصَبْرًا عَلَى مَكْرُوهِهَا وَالعَوَاقِبِ

وَلَمْ أَرَهَا إِلاَّ ثَلاَثاً عَلَى مِـــنًى   وَعَهْدِى بِهَا عَذْرَاءَ ذَاتُ الذَّوَائِبِ
تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ   بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضَنَّتْ بِحَاجِبِ

وقال أيضاً :

أَحِنُّ إِذَا رَأَيْتُ جِمَـــالَ قَوْمِي   وَأَبْـكِي إِنْ سَمِعْتُ لَهَـا حَنِينَا
سَقَى الغَيْثُ المَجِيدُ بِلاَدَ قَوْمِي   وَإِنْ خَلَتِ الدِّيَارُ وَإِنْ بُلِينَا
عَلَى نَجْدٍ وَسَاكِنِ أَرْضِ نَجْدٍ   تَحِيَّاتٌ يَرُحْنَ وَيَغْتَدِينَــا

وقال أيضاً :

بِنَفْسِيَ مَنْ لاَ بُدَّ لِيَ أَنْ أُهَاجِرَهْ   وَمَنْ أَنَا فِي المَيْسُورِ وَالعُسْرِ ذَاكِرُهْ
وَمَنْ قَدْ رَمَاهُ النَّاسُ بِي فَاتَّقَاهُمْ   بِهَجْرِيَ إِلاَّ مَا تُجِنُّ ضَمَـــائِرُهْ
فَمِنْ أَجْلِهَا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرَحْبِهَا   بِلاَدِي إِذَا لَمْ أَرْضَ مِمَّنْ أُجَاوِرُهُ
وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ مَنْ لاَ يُحِبُّنِي   وَبَاغَضْتُ مَنْ قَدْ كُنْتُ حِيناً أُعَاشِرُهْ
أَتَهْجُرُ بَيْتــاً لِلْحَبِيبِ تَعَلَّقَتْ   بِهِ الحُبُّ وَالإِعْدَامُ أَمْ أَنْتَ زَائِرُهْ
وَكَيْفَ خَلاَصِي مِنْ جَـــوَى الحُبِّ بَعْدَمَا
يُسَرُّ بِهِ بَطْنُ الفُؤَادِ وَظَاهِـــرُهْ
وَقَدْ مَاتَ قَبْلِي أَوَّلُ الحُبِّ فَانْقَضَى   فَإِنْ مِتُّ أَضْحَى الحُبُّ قَدْ مَاتَ آخِرُهْ
وَقَدْ كَانَ قَلْبِي فِي حِجَابٍ يُكِنُّهُ   فَحُبُّكِ مِنْ دُونِ الحِجَابِ يُبَاشِرُهْ
أَصُدُّ حَيَاءً أَنْ يَلِجَّ بِيَ الهَوَى   وَفِيكِ المُنَى لَوْلاَ عَدُوٌّ أُحَاذِرُهْ

وقال أيضاً :

يَامَنْ شُغِلْتُ بِهَجْرِهِ وَوِصَالِهِ   هِمَمُ الْمُنَى وَنَسِيتُ يَوْمَ مَعَادِى
وَاللهِ مَا التَفَتَ الْجُفُونُ بِنَظْرَةٍ   إِلاَّ وَذِكْرُكَ خَاطِرٌ بِفُؤَادِى

وقال أيضاً :

وَمَفْرُوشَةِ الْخَدَّيْنِ وَرْدًا مُضَرَّجًا   إِذَا جَمَّشَتْهُ العَيْنُ عَادَ بَنَفْسِجاً
شَكَوْتُ إِلَيْهَا طُولَ لَيْلِى بِعَبْرَةٍ   فَأَبْدَتْ لَنَا بِالْغَنْجِ دُرًّا مُفَلَّجَا
فَقُلْتُ لَهَا مُنِّى عَلَىَّ بِقُبْلَةٍ   أُدَاوِى بِهَا قَلْبِى فَقَالَتْ تَغَنُّجَا
بُلِيتَ بِرِدْفٍ لَسْتُ أَسْطَعُ حِمْلَهُ   يُجَاذِبُ أَعْضَائِى إِذَا مَا تَرَجْرَجَا

وقال أيضاً :

فُؤَادِى بَيْنَ أَضْلاَعِى غَرِيبٌ   يُنَادِى مَنْ يُحِبُّ فَلاَ يُجِيبُ
أَحَاطَ بِهِ البَلاَءُ فَكُلَّ يَوْمٍ   تُقَارِعُهُ الصَّبَابَةُ وَالنَّحِيبُ
لَقَدْ جَلَبَ البَلاَءَ عَلَىَّ قَلْبِى   فَقَلْبِى مُذْ عَلِمْتُ لَهُ جَلُوبُ
فَإِنْ تَكُنِ القُلُوبُ كَمِثْلِ قَلْبِى   فَلاَ كَانَتْ إِذاً تِلْكَ القُلُوبُ

وقال أيضاً :

وَمُسْتَوْحِشٍ لَمْ يُمْسِ فِى دَارِ غُرْبَةٍ   وَلٰكِنَّهُ مِمَّنْ يَوَدُّ غَرِيبُ

وقال أيضاً :

بَيْضَاءُ بَاكَرَهَا النَّعِيمُ كَأَنَّهَا   قَمَرٌ تَوَسَّطَ جُنْحَ لَيْلٍ أَسْوَدِ
مَوْسُومَةٌ بِالْحُسْنِ ذَاتِ حَوَاسِدٍ   إِنَّ الْحِسَانَ مَظِنَّةٌ لِلْحُسَّدِ

وَتَرَى مَدَامِعَهَا تُرَقْرِقُ مُقْلَةً　　سَوْدَاءَ تَرْغَبُ عَنْ سَوَادِ الإِثْمِدِ
خَوْدٌ إِذَا كَثُرَ الكَلَامُ تَعَوَّذَتْ　　بِحِمَى الحَيَاءِ وَإِنْ تَكَلَّمْ تَقْصِدِ

وقال أيضاً :

أَحِنُّ إِلَى نَجْدٍ وَإِنِّي لَآيِسُ　　طِوَالَ اللَّيَالِي مِنْ قُفُولٍ إِلَى نَجْدِ
وَإِنْ يَكُ لَا لَيْلَى وَلَا نَجْدَ فَاعْتَرِفْ　　بِهَجْرٍ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَالْوَعْدِ

وقال أيضاً :

أَلَا إِنَّمَا أَفْنَى دُمُوعِي وَشَفَّنِي　　خُرُوجِي وَتَرْكِي مَنْ أُحِبُّ وَرَائِيَا
وَمَالِيَ لَا يَسْتَنْفِدُ الشَّوْقُ عَبْرَتِي　　إِذَا كُنْتُ مِنْ دَارِ الأَحِبَّةِ نَائِيَا
إِذَا لَمْ أَجِدْ عُذْراً لِنَفْسِي وَلُمْتُهَا　　حَمَلْتُ عَلَى الْأَقْدَارِ مَا كَانَ جَارِيَا

قال : فلما فرغ من إنشاد هذه الأشعار ظهر له غزالان فى أصل جبل فتبعهما حتى وقف بحذائهما وجعل ينظر إليهما ويبكى ويقول :

أَيَا جَبَلَ الثَّلْجِ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ　　غَزَالَانِ مَكْحُولَانِ مُؤْتَلِفَانِ
غَزَالَانِ شَبَّا فِي نَعِيمٍ وَغِبْطَةٍ　　ورَغْدَةِ عَيْشٍ نَاعِمٍ عَطِرَانِ
أَرَغْتُهُمَا خَتْلاً فَلَمْ أَسْتَطِعْهُمَا　　فَفَرَّا وَشِيكاً بَعْدَ مَا قَتَلَانِي
خَلِيلَيَّ أَمَّا أُمُّ عَمْرٍو فَمِنْهُمَا　　وَأَمَّا عَنِ الْأُخْرَى فَلَا تَسَلَانِي
فَمَا صَادِيَاتٌ حُمْنَ يَوْمًا وَلَيْلَةً　　عَلَى المَاءِ دُونَ الْوِرْدِ هُنَّ حَوَانِ
يَرَيْنَ حُبَابَ المَاءِ وَالمَوْتُ دُونَهُ　　وَهُنَّ لِأَصْوَاتِ السُّقَاةِ رَوَانِ
بِأَكْثَرَ مِنِّي حَسْرَةً وَصَبَابَةً　　إِلَيْهَا وَلَكِنَّ الفِرَاقَ عَرَانِي

خَلِيــلَيَّ إنِّي مَيِّتٌ أَوْ مُكَلَّمٌ   لِلَيْلَى بِحَاجِي فَانْضِيَا وَذَرَانِي
أَقِلْ حَاجَتِي وَحْدِي فَيَارُبَّ حَاجَةٍ   قُضِيَتْ عَلَى هَوْلٍ وَخَوْفِ مَكَانِ
وَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ مِنِّي تَحِيَّةً   وَشَوْقًا لَهَا مَنْ لَوْ يَشَاءُ شَفَانِي
وَمَنْ قَادَنِي لِلْمَوْتِ حَتَّى إِذَا صَفَتْ   مَشَارِبُهُ سُمَّ الذُّعَافِ سَقَانِي

وقال أيضاً :

أُحِبُّكِ حُبًّا لَوْ تُحِبِّينَ مِثْلَهُ   أَصَابَكِ مِنْ وَجْدٍ عَلَيَّ جُنُونُ
وَصِرْتِ بِقَلْبٍ عَاشَ أَمَّا نَهَارُهُ   فَحُزْنٌ وَأَمَّا لَيْلُهُ فَأَنِينُ

ثم نهض من الواديين ، ومر على وجهه يدور فى الصحراء ، فمر برجلين قد قنصا ظبياً ور بطاه، فدنا منهما المجنون وتأمله ساعة، ثم قال لهما : اختارا شاة من غنمى مكانه وخلياه . فأبيا عليه ، فلم يزل بهما حتى أعطاهما أربع شياه من غنمه مكانه ثم خلياه فأنشأ يقول :

شَرَيْتُ بِشَاتِي شِبْهَ لَيْلَى وَلَوْ أَبَوْا   لَأَعْطَيْتُ مِنْ مَالِي طَرِيفِي وَتَالِدِي
فَلَوْ كُنْتُمَا حُرَّيْنِ مَا بِعْتُمَا مَعاً   شَبِيهاً لِلَيْلَى بَيْعَةَ الْمُتَزَايِدِ
وَأَعْتَقْتُمَاهَا رَغْبَةً فِي ثَوَابِهَا   وَلَمْ تَرْغَبَا فِي نَاقِصٍ غَيْرِ زَائِدِ

وقال أيضاً :

يَا صَاحِبَيَّ اللَّذَيْنِ الْيَوْمَ قَدْ أَخَذَا   فِي الْحَبْلِ شِبْهاً لِلَيْلَى ثُمَّ غَلَّاهَا
إِنِّي أَرَى الْيَوْمَ فِي أَعْطَافِ شَاتِكُمَا   مُشَابِهاً أَشْبَهَتْ لَيْلَى فَحُلَّاهَا
وَأَرْشِدَاهَا إِلَى خَضْرَاءَ مُعْشِبَةٍ   يَوْماً وَإِنْ طَلَبَتْ إِلْفاً فَدُلَّاهَا

وَأَوْرِدَاهَا غَدِيراً لاَ عَدِمْتُكُمَا مِنْ مَاءِ مُزْنٍ قَرِيبٍ عِنْدَ مَرْعَاهَا

ثم إنه مرّ ببني عمه ، وكانوا معادين له يسخرون منه ، ويهزءون به ، ويقولون : كيف ليلى ؟ وكيف حبك لها ؟ فإذا ذُكرت ليلى له رجع إليه عقله ، فيجلس إليهم يحدثهم، و ينشدهم ماقال فيها من الشعر، فيقولون: والله ما به من جنون و إنه لعاقل ، فإذا سمع منهم هذه المقالة خنقته العَبرة وأنشأ يقول :

أَيَا وَيْحَ مَنْ أَمْسَى يُخَلَّسُ عَقْلُهُ فَأَصْبَحَ مَذْهُوبًا بِهِ كُلَّ مَذْهَبِ
خَلِيعاً مِنَ الْخُلاَّنِ إِلاَّ مُعَذَّبًا يُضَاحِكُنِي مَنْ كَانَ يَهْوَى تَجَنُّبِي
إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى عَقَلْتُ وَرَاجَعَتْ رَوَائِعُ قَلْبِي مِنْ هَوًى مُتَشَعِّبِ
وَقَالُوا : صَحِيحٌ مَا بِهِ طَيْفُ جِنَّةٍ وَلاَ الْهَمُّ إِلاَّ بِافْتِرَاءِ التَّكَذُّبِ
وَلِي سَقَطَاتٌ حِينَ أُغْفِلُ ذِكْرَهَا يَغُوصُ عَلَيْهَا مَنْ أَرَادَ تَعَقُّبِي
وَشَاهِدُ وَجْدِي دَمْعُ عَيْنِي وَحُبُّهَا
بَرَى اللَّحْمَ عَنْ أَحْنَاءِ عَظْمِي وَمَنْكِبِي
تَجَنَّبْتُ لَيْلَى أَنْ يَلِجَّ بِيَ الْهَوَى وَهَيْهَاتَ كَانَ الْحُبُّ قَبْلَ التَّجَنُّبِ
فَمَا مُغْزِلٌ أَدْمَاءُ بَاتَ غَزَالُهَا بِأَسْفَلِ نُهْيٍ ذِي عِرَارٍ وَخُلَّبِ
بِأَحْسَنَ مِنْ لَيْلَى وَلاَ أُمُّ فَرْقَدٍ غَضِيضَةُ طَرْفٍ رَعْيُهَا وَسْطَ رَبْرَبِ
نَظَرْتُ خِلاَلَ الرَّكْبِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى
بِعَيْنَيْ قَطَامِيٍّ نَمَا فَوْقَ عُرْقُبِ

إِلَى ظُعُنٍ تُحْدَى كَأَنَّ زُهَاءَهَا ... نَوَاعِمُ أَثْلٍ (١) أَوْ سُقَيَّاتُ أَثْلَبِ (٢)
وَلَمْ أَرَ لَيْلَى غَيْرَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ ... بِبَطْنِ مِنًى تَرْمِي جِمَارَ الْمُحَصَّبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَنَاظِرٍ ... مَعَ الصُّبْحِ فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغَرِّبِ
أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... صَدًى أَيْنَمَا تَذْهَبْ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبِ
حَلَفْتُ بِمَنْ أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ ... عَلَيْهِ ضَبَابٌ مِثْلُ رَأْسِ الْمُعَصَّبِ
وَمَا يَسْلُكُ الْمَوْمَاةُ (٣) مِنْ كُلِّ نَقْضَةٍ
طَلِيحٌ كَجَفْنِ السَّيْفِ تُهْدَى لِمَرْكَبِ
خَوَارِجَ مِنْ نُعْمَانَ أَوْ مِنْ سُفُوحِهِ
إِلَى الْبَيْتِ أَوْ يَطْلُعْنَ مِنْ نَجْدِ كَبْكَبِ
لَهُ حَظُّهُ الْأَوْفَى إِذَا كَانَ غَائِبًا ... وَإِنْ جَاءَ يَبْغِي نَيْلَنَا لَمْ يُؤَنَّبِ
لَقَدْ عِشْتُ مِنْ لَيْلَى زَمَانًا أُحِبُّهَا ... أَرَى الْمَوْتَ مِنْهَا فِي مَجِيئِي وَمَذْهَبِي
وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ التَّفَرُّقَ فَلْتَةٌ ... وَأَنَّا مَتَى مَا نَفْتَرِقْ نَتَشَعَّبِ
أَشَارَتْ بِمَوْشُومٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ ... مِنَ اللِّينِ هُدَّابُ الدِّمَقْسِ (٤) الْمُهَذَّبِ

قال عوانة :

خرج منا رجل إلى وادى القرى مع جماعة يمتارون فمرُّوا على طريقهم وعثروا بالمجنون ، فقالوا : ياقيس نراك محبًّا لليلى ؟ فقال نعم ، قالوا : أفلا

---

(١) الأثل شجر واحدته أثلة ، وجمعه أثلات وأثول .
(٢) الأثلب ـ بالفتح ويكسر ـ التراب والحجارة أو فتاتها .
(٣) الموماة : الصحراء . والطليح : البعير المهزول .
(٤) الدمقس : كهزبر الابريسم أو القز أو الديباج أو الكتان

نأتي جبلي نعمان ، قال : فأية ريح تهب من أرضها ؟ قالوا : الصبا ، فأقام بها وأنشأ يقول :

أَيَا جَبَلَيْ نُعْمَانَ بِاللهِ خَلِّيَا ... سَبِيلَ الصَّبَا يَخْلُصْ إِلَيَّ نَسِيمُهَا
أَجِدْ بَرْدَهَا أَوْ يُشْفِ مِنِّي حَرَارَةً ... عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَمِيمُهَا
فَإِنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمَتْ ... عَلَى نَفْسِ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا
لَيَالِيَ أَهْلُونَا بِنُعْمَانَ جِيرَةً ... وَإِذَا نَحْنُ نُرْضِيهَا بِدَارٍ نُقِيمُهَا
أَلَا إِنَّ أَدْوَائِي بِلَيْلَى قَدِيمَةٌ ... وَأَقْتَلُ دَاءِ الْعَاشِقِينَ قَدِيمُهَا
تَذَكَّرْتُ وَصْلَ النَّاعِجِيَّاتِ بِالضُّحَى ... وَلَذَّةَ عَيْشٍ قَدْ تَوَلَّى نَعِيمُهَا
وَأَنْتِ الَّتِي هَيَّجْتِ عَيْنِي بِالْبُكَا ... فَأَسْجَمَ غُرْبَاهَا فَطَالَ سُجُومُهَا
وَقَدْ قَذِيَتْ عَيْنِي بِلَيْلَى وَأَتْبَعَتْ ... قَذَاهَا وَقَدْ يَأْتِي عَلَى الْعَيْنِ شُومُهَا
خَلِيلَيَّ قُومَا بِالْعِصَابَةِ فَاعْصِبَا ... عَلَى كَبِدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا رَمِيمُهَا

وقال :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى الْأَبْرَقِ الْفَرْدِ ... وَعَهْدِي بِلَيْلَى حَبَّذَا ذَاكَ مِنْ عَهْدِ
أَلَا يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْتِ مِنْ نَجْدِ ... فَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدًا عَلَى وَجْدِي
إِذَا هَتَفَتْ وَرْقَاءُ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى ... عَلَى فَنَنٍ غَضِّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّنْدِ
بَكَيْتُ كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدُ وَلَمْ أَزَلْ ... جَلِيدًا وَأَبْدَيْتُ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أُبْدِي
وَأَصْبَحْتُ قَدْ قَضَّيْتُ كُلَّ لُبَانَةٍ ... تِهَامِيَّةٍ وَاشْتَاقَ قَلْبِي إِلَى نَجْدِ
إِذَا وَعَدَتْ زَادَ الْهَوَى لِانْتِظَارِهَا ... وَإِنْ بَخِلَتْ بِالْوَعْدِ مُتُّ عَلَى الْوَعْدِ

وَإِنْ قَرُبَتْ دَارًا بَكَيْتُ وَإِنْ نَأَتْ كَلِفْتُ فَلَا لِلْقُرْبِ أَسْلُو وَلَا الْبُعْدِ
أَحِنُّ إِلَى نَجْدٍ فَيَالَيْتَ إِنَّنِي سُقِيتُ عَلَى سُلْوَانَةٍ مِنْ هَوَى نَجْدِ
أَلَا حَبَّذَا نَجْدٌ وَطِيبُ تُرَابِهِ وَأَرْوَاحُهُ إِنْ كَانَ نَجْدٌ عَلَى الْعَهْدِ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إِذَا دَنَا يُمَلُّ وَأَنَّ النَّأْىَ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
بِكُلٍّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَابِنَا عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ
عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا كَانَ مَنْ تَهْوَاهُ لَيْسَ بِذِى وُدِّ

ثم مضى على وجهه واشتد به الشوق فكان لايلبَس قميصاً إلا خرّقه ، ولا دِرعا إلا مزقه ، وترك محادثة الناس ، وصار لايفقه شيئا ، قد اختلس لُبُّه واختطفته الأحزان والكرب ، وخامره الجنون ، وعلاه الأمر الفظيع ، فإذا ذكرت له ليلى آب إليه عقله ، وأفاق من غشيته ، وتجلت عنه غمرته فإذا قطع ذكرها عاد إلى وسواسه وسوء حاله ، يأنس بالوحش ويستريح إليه ، ويتنسم الريح من تلقاء نجد .

(قال الوالبى) :

ثم وَلِيَ عليهم نوفل بن مساحق ، قال : فبينما نوفل فى بعض طريقه إذ مر برجل عريان كأصبح مايكون من الرجال ، وهو قاعد يلعب بالتراب قد جمع العظام حوله ، فدنا منه فقال : والله مارأيت أعجب من هذا الفتى : ياغلام اطرح عليه ثوبا ، فقال له بعض أصحابه : أتدرى من هذا ؟ قال لا ، قالوا : هذا مجنون بنى عامر ، قال نوفل : والله لقد كنت أحبه وأحب لقاءه فكيف لى بالدنوِّ منه ؟ قيل له إذا ذَكَرْتَ له ليلى فإنه يأنس ، فدنا منه نوفل ، وقال : أيها المشغوف ! إن ليلى تقرأ عليك السلام . فلما ذكرها رجع

إليه عقله، وأقبل إليه يحدثه كأصح مايكون من الرجال ، وهو يبكى و ينكت الأرض بأصبعه و يقول :

أَيَا هَجْرَ لَيْلَى قَدْ بَلَغْتَ بِيَ المَدَى ... وَزِدْتَ عَلَى مَالَمْ يَكُنْ بَلَغَ الهَجْرُ
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... فَلَمَّا انقَضَى مَابَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
فَيَاحُبَّهَا زِدْنِي جَوًى كُلَّ لَيْلَةٍ ... وَيَاسَلْوَةَ الأَيَّامِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ
تَكَادُ يَدِي تَنْدَى إِذَا مَالَمَسْتُهَا ... وَيَنْبُتُ فِى أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ الخَضْرُ
وَوَجْهٌ لَهُ دِيبَاجَةٌ قُرَشِيَّةٌ ... بِهِ تُكْشَفُ الْبَلْوَى وَيُسْتَنْزَلُ الْقَطْرُ
وَيَهْتَزُّ مِنْ تَحْتِ الثِّيَابِ قَوَامُهَا ... كَمَا اهْتَزَّ غُصْنُ الْبَانِ وَالْفَنَنُ الْخَضْرُ
فَيَاحَبَّذَا الْأَحْيَاءُ مَادُمْتِ فِيهِمُ ... وَيَا حَبَّذَا الْأَمْوَاتُ إِنْ ضَمَّكِ الْقَبْرُ
وَإِنِّى لَتَعْرُونِى لِذِكْرَاكِ نَفْضَةٌ ... كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ الْقَطْرُ
عَسَى إِنْ حَجَجْنَا وَاعْتَمَرْنَا وَحُرِّمَتْ ... زِيَارَةُ لَيْلَى أَنْ يَكُونَ لَنَا الْأَجْرُ
فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً ... فَأُبْهَتُ لَاعُرْفٌ لَدَىَّ وَلَا نُكْرُ
فَلَوْ أَنَّ مَابِى بِالحَصَى فَلَقَ الحَصَى ... وَبِالصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ لَانْصَدَعَ الصَّخْرُ
وَلَوْ أَنَّ مَابِى بِالْوُحُوشِ لَمَا رَعَتْ ... وَلَا سَاغَهَا المَاءُ النَّمِيرُ وَلَا الزَّهْرُ
وَلَوْ أَنَّ مَابِى بِالْبِحَارِ لَمَا جَرَى ... بِأَمْوَاجِهَا بَحْرٌ إِذَ زَخَرَ الْبَحْرُ

قال له نوفل : الحب صيّرك إلى ما أرى ؟ قال له : اللهم نعم ، وسيبلغ بى أكثر مما ترى ، واندفع ينشد :

أَيَا حَدَجَاتِ (١) الحَىِّ حِينَ تَحَمَّلُوا ... بِذِى سَلَمٍ لَاجَادَكُنَّ رَبِيعُ

(١) الحدج بالكسر الحمل ، ومركب للنساء كالمحفة .

وَخَيْمَاتُكِ اللَّاتِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... بُلِينَ بِلًى مَا إِنْ لَهُنَّ رُجُوعُ
إِلَى اللهِ أَشْكُو نِيَّةً شَقَّتِ الْعَصَا ... هِيَ الْيَوْمَ شَتَّى وَهْيَ أَمْسِ جَمِيعُ
فَلَوْ لَمْ يَهِجْنِي الظَّاعِنُونَ لَهَاجَنِي ... نَوَائِحُ وُرْقٌ فِي الدِّيَارِ وُقُوعُ
تَدَاعَيْنَ فَاسْتَبْكَيْنَ مَنْ كَانَ ذَا هَوًى ... نَوَائِحُ لَا تَجْرِي لَهُنَّ دُمُوعُ
لَعَمْرِي إِنِّي يَوْمَ جَرْعَاءِ مَالِكٍ ... لَعَاصٍ لِأَمْرِ الْعَاذِلِينَ مُطِيعُ
وَمَا كَادَ قَلْبِي بَعْدَ أَيَّامِ جَاوَزَتْ ... إِلَيَّ بِأَجْوَازِ الْبَدِيِّ يُرِيعُ
وَإِنَّ انْهِمَالَ الدَّمْعِ يَالَيْلُ كُلَّمَا ... ذَكَرْتُكِ يَوْمًا خَالِيًا لَسَرِيعُ
نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي نَدَامَةً ... كَمَا نَدِمَ الْمَغْبُونُ حِينَ يَبِيعُ
لَعَمْرُكِ مَا شَيْءٌ سَمِعْتُ بِذِكْرِهِ ... كَبَيْنِكِ يَأْتِي بَغْتَةً فَيَرُوعُ
عَدِمْتُكِ مِنْ نَفْسٍ شَعَاعٍ فَإِنَّنِي ... نَهَيْتُكِ عَنْ هَذَا وَأَنْتِ جَمِيعُ
فَقَرَّبْتِ لِي غَيْرَ الْقَرِيبِ وَأَشْرَفَتْ ... هُنَاكَ ثَنَايَا مَا لَهُنَّ طُلُوعُ
يُضَعِّفُنِي حُبِّيكِ حَتَّى كَأَنَّنِي ... مِنَ الْأَهْلِ وَالْمَالِ التَّلِيدِ نَزِيعُ
وَحَتَّى دَعَانِي النَّاسُ أَحْمَقَ مَائِقًا ... وَقَالُوا تَبُوعٌ لِلضَّلَالِ مُطِيعُ

وقال أيضاً :

خَلِيلَيَّ هَذَا الرَّبْعُ أَعْلَمُ آيَةً ... فَبِاللهِ عُوجَا سَاعَةً ثُمَّ سَلِّمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بَذَلْتُ مَوَدَّتِي ... لِلَيْلَى وَأَنَّ الْحَبْلَ مِنْهَا تَصَرَّمَا
سَأَلْتُكُمَا بِاللهِ لَمَّا قَضَيْتُمَا ... عَلَيَّ فَقَدْ وُلِّيتُمَا الْحُكْمَ فَاحْكُمَا
بِجُودِي عَلَى لَيْلَى بِوُدِّي وَبُخْلِهَا ... عَلَيَّ سَلَاهَا أَيُّنَا كَانَ أَظْلَمَا
أَحِنُّ إِلَيْهَا كُلَّمَا ذَرَّ شَارِقٌ ... كَحُبِّ النَّصَارَى قُدْسَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَا

فَوَاللهِ ثُمَّ وَاللهِ إِنِّى لَصَادِقٌ ... لَذِكْرُكِ فى قَلْبِى أَجَلُّ وَأَعْظَمَا
كَلاَمُكِ أَشْهَى فَاعْلَمِى لَوْ أَنَالُهُ ... إِلَى النَّفْسِ مِنْ بَرْدِ الشَّرَابِ عَلَى الظَّمَا
وَوَاللهِ مَا أَحْبَبْتُ حُبَّكِ فَاعْلَمِى ... لِنُكْرٍ وَلاَ أَحْبَبْتُ حُبَّكِ مَأْثَمَا
لَقَدْ أَكْثَرَ اللُّوَّامُ فِيكِ مَلاَمَتِى ... وَكَانُوا لِمَا أَبْدَوْا مِنَ اللَّوْمِ أَلْوَمَا
وَقَدْ أَرْسَلَتْ لَيْلَى إِلَيَّ رَسُولَهَا ... بِأَنِ ائْتِنَا سِرًّا إِذَا اللَّيْلُ أَظْلَمَا
فَجِئْتُ عَلَى خَوْفٍ وَكُنْتُ مُعَوِّذًا ... أُحَاذِرُ أَيْقَاظًا عُدَاةً وَنُوَّمَا
فَبِتُّ وَبَاتَتْ لَمْ نَهُمَّ بِرِيبَةٍ ... وَلَمْ نَجْتَرِحْ يَاصَاحِ وَاللهِ مُحَرَّمَا
وَكَيْفَ أُعَزِّى الْقَلْبَ عَنْهَا تَجَلُّدًا ... وَقَدْ أَوْرَثَتْ فِى الْقَلْبِ دَاءً مُكَتَّمَا
فَلَوْ أَنَّهَا تَدْعُو الحَمَامَ أَجَابَهَا ... وَلَوْ كَلَّمَتْ مَيْتًا إِذًا لَتَكَلَّمَا
وَلَوْ مَسَحَتْ بِالْكَفِّ أَعْمَى لَأَذْهَبَتْ ... عَمَاهُ وَشِيكاً ثُمَّ عَادَ بِلاَ عَمَى
مُنَعَّمَةٌ تَسْبِى الحَلِيمَ بِوَجْهِهَا ... تَزَيَّنُ مِنْهَا عِفَّةٌ وَتَكَرُّمَا
فَتِلْكَ الَّتِى مَنْ كَانَ دَاءٌ دَوَاؤُهُ ... وَهَارُوتُ كُلَّ السِّحْرِ مِنْهَا تَعَلَّمَا

فلما أتمّ هذه الأبيات ، قال له نوفل: هل لك أن تجيء معى حتى أقدم بلادك، وأخطبها لك وأرغبهم فى جميع مايحتاجون إليه ؟ قال: هل أنت فاعل ذلك ؟ قال : نعم، والله إن خرجت معى لأجهدنّ ولو غرمت فيك ملكى وما حوته يدى ، ثم أمر فأُدخل الحمام وأمر الحجام فأخذ شعره وغيّر لحيته وكساه كسوة فاخرة ، فلما خرج نوفل أخرج المجنون معه ، فلما كان بالقرب من بلادهم بلغهم ذلك فتلقوه بالسلاح الشاك ، وقالوا: والله لايدخل

المجنون منزلنا أبدا وقد أهدر السلطان دمه ، وأقبل عليهم نوفل وأدبر فأبوا إلا المحاربة وتشمروا للمقارعة ، فلما رأى نوفل ذلك قال : انصرف فإن الأمر عندهم لصعب ، فانصرف المجنون عنه بخيبة ، وقد كان أمر له نوفل بقلائص فردها عليه ، وقال ماوفيت لى بالعهد ثلاثًا ، وأنشأ يقول :

رَدَدْتُ قَلَائِصَ الْقُرَشِيِّ لَمَّا ... رَأَيْتُ النَّقْضَ مِنْهُ لِلْعُهُودِ
وَرَاحُوا مُقْصِرِينَ وَخَلَّفُونِي ... إِلَى حُزْنٍ أُعَالِجُهُ شَدِيدُ
أُحِبُّ السَّبْتَ مِنْ كَلَفِي بِلَيْلَى ... كَأَنِّي يَوْمَ ذَاكَ مِنَ الْيَهُودِ

وحُدِّثت عن أبى عمرو الشيبانى قال : كان سبب توحش المجنون أنه كان ذات يوم بقرية ، فناداه مناد وهو يقول :

كِلَانَا يَا أُخَيَّ نُحِبُّ لَيْلَى ... بِفِيَّ وَفِيكَ مِنْ لَيْلَى التُّرَابُ
لَقَدْ خَتَلَتْ فُؤَادَكَ ثُمَّ بَانَتْ ... بِقَلْبِيَ فَهْوَ مَهْمُومٌ مُصَابُ

قال فتنفس الصعداء وغشى عليه ساعة فكان سبب توحشه هذه الأبيات .

قال أبو بكر الوالبى : لما انصرف المجنون عن نوفل بخيبة ، وأبى أهلها أن يزوجوها منه ، مرّ على وجهه والصبيان يصيحون : من أراد أن يرى عاشقا سمينا فلينظر إلى هذا ، فانشأ يقول :

أَرَى النَّاسَ أَمَّا مَنْ تَجَدَّدَ وَصْلُهُ ... فَغَثٌّ وَأَمَّا مَنْ خَلَا فَسَمِينُ

تُخَبِّرُنِي الْأَحْلامُ أَنِّي أَرَاكُمُ فَيَالَيْتَ أَحْلامَ الْمَنَامِ يَقِينُ
شَهِدْتُ بِأَنِّي لَمْ أَخُنْكِ مَوَدَّةً وَأَنِّي بِكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ ضَنِينُ
وَأَنَّ فُؤَادِي لايَلِينُ إِلَى هَوَى سِوَاكِ وَإِنْ قَالُوا بَلَى سَيَلِينُ

وقال أيضًا :

أَنْفُسُ الْعَاشِقِينَ لِلشَّوْقِ مَرْضَى وَبَلاءُ الْمُحِبِّ لايَتَقَضَّى
عَبَرَاتُ الْمُحِبِّ كَيفَ تَرَاهَا بَعْضُهَا يَسْتَحِثُّ فِي الْخَدِّ بَعْضَا
لَيْسَ يَخْلُو أَخُو الْهَوَى أَنْ تَرَاهُ كُلَّ يَوْمٍ يُلامُ أَوْ يُتَرَضَّى
بَاكِيًا سَاهِيًا نَحِيلاً ذَلِيلاً لَيْسَ يَهْدَأُ وَلَيسَ يَطْعَمُ غَمْضَا

وقال أيضًا :

أَلا لَيْتَنَا كُنَّا غَزَالَيْنِ نَرْتَعِي رِيَاضًا مِنَ الْحَوْذَانِ فِي بَلَدٍ قَفْرِ
أَلا لَيْتَنَا كُنَّا حَمَامَيْ مَفَازَةٍ نَطِيرُ وَنَأْوِي بِالْعَشِيِّ إِلَى وَكْرِ
أَلا لَيْتَنَا حُوتَانِ فِي الْبَحْرِ نَرْتَمِي إِذَا نَحْنُ أَمْسَيْنَا نَلَجَّجُ فِي الْبَحْرِ
* وَيَالَيْتَنَا نَحْيَا جَمِيعًا وَلَيْتَنَا نَصِيرُ إِذَا مِتْنَا ضَجِيعَيْنِ فِي قَبْرِ
ضَجِيعَيْنِ فِي قَبْرٍ عَنِ النَّاسِ مُعْزَلٍ وَنُقْرَنُ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْحَشْرِ وَالنَّشْرِ

وقال أيضًا :

أَرِقْتُ وَعَادَنِي هَمٌّ جَدِيدُ لِجِسْمِيَ لِلْهَوَى نِضْوٌ بَلِيدُ
أُرَاعِي الْفَرْقَدَيْنِ مَعَ الثُّرَيَّا كَذَاكَ الْحُبُّ أَهْوَنُهُ شَدِيدُ

عَلِقْتُ مَلِيحَةَ الخَدَّيْنِ وَرْدًا ... تُشْبِهُ حُسْنَ مَطْلَعِهَا السُّعُودُ
أَهِيمُ بِذِكْرِهَا وَأَظَلُّ صَبًّا ... وَعَيْنِي بِالدُّمُوعِ لَهَا تَجُودُ
أَلَا لَيْتَ لَحْدَكِ كَانَ لَحْدِي ... إِذَا ضَمَّتْ جَنَائِزَنَا اللُّحُودُ

قال : فبينما هو ذات يوم يدور إذ أبصر سِرْباً من الظباء فأنشأ يقول :

أَأَتْرُكُ لَيْلَى لَيسَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... سِوَى لَيْلَةٍ إِنِّي إِذًا لَصَبُورُ
هَبُونِي امْرَءًا مِنْكُمْ أَضَلَّ بَعِيرَهُ ... لَهُ ذِمَّةٌ إِنَّ الذِّمَامَ كَبِيرُ
وَلِلصَّاحِبِ المَتْرُوكِ أَعْظَمُ حُرْمَةٍ ... عَلَى صَاحِبٍ مِنْ أَنْ يَضِلَّ بَعِيرُ
عَفَا اللهُ عَنْ لَيْلَى الغَدَاةَ فَإِنَّهَا ... إِذَا وَلِيَتْ حُكْماً عَلَيَّ تَجُورُ
فَمَا أَكْثَرَ الأَخْبَارَ أَنْ قَدْ تَزَوَّجَتْ ... فَهَلْ يَأْتِيَنِّي بِالطَّلَاقِ بَشِيرُ

وقيل خرج الملوح أبو المجنون في عدة من عشيرته ومعه المجنون ، وذلك قبل أن يفشو أمره ، فمر بوادٍ يقال له البلاكث ، فبينما هم فى سيرهم إذ قال المجنون لفتى منهم كان يأنس به ويفشي سره إليه : ويحك إنى ذكرت ليلى ، ولا بدّ والله من الانصراف ، فإن نفسى تكاد تهلك شوقا إليها فناشده فأبى ، فقال : استأذن أباك ، فقال : إذًا لا يأذن لى ، ولكن أنا منصرف وحدى ، قال : وأنا معك ، ولكنى أعلم أخى فأعلمه ، فقال وأنا معكما ، فتخلفوا كأنهم يقضون حاجة ثم عبروا وحولوا رءوس إبلهم وقال :

بَيْنَمَا نَحْنُ بِالبَلَاكِثِ بِالْقَا ... عِ سِرَاعًا وَالعِيسُ تَهْوِي هُوِيًّا

خَطَرَتْ خَطْرَةٌ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ ذِكْـرَاكِ وَهْنًا فَمَا اسْتَطَعْتُ مُضِيَّا
قُلْتُ لَبَّيْكِ إِذْ دَعَانِي لَكِ الشَّوْ قُ وَلِلْحَادِيِينِ كُرَّا الْمَطِيَّا

قال الوالبي : فلما طار به الوجد ولم يقدر على النظر خرج متنكرا يريد حيّ ليلى ، فلما انتهى إلى قرب الحي بقي متحيرا لم يدر كيف يحتال ويصنع في دخول الحي عسى أن ينظر إليها نظرة ، فبينما هو كذلك إذ رأى عجوزا معها سائل في عنقه سلسلة تدور به على الأبواب فقال : ياعجوز ماتريدين من هذا السائل ؟ قالت نصف ما يأخذ، قال : ضعى هذه السلسلة على عنقى ، وخذى ماعليّ من الثياب ، فوضعتها على عنقه وأقبلت تدور به على الأبواب والصبيان يرمونه بالحجارة ، ويصيحون بالكلاب عليه ، فلما صار قريبا من خباء ليلى أنشد يقول :

هَنِيئًا مَرِيئًا مَا أَخَذْتِ وَلَيْتَنِي أَرَاهَا وَأُعْطِي كُلَّ يَوْمٍ ثِيَابِيَا
وَيَالَيْتَهَا تَدْرِي بِأَنِّي خَلِيلُهَا وَأَنِّي أَنَا الْبَاكِي عَلَيْهَا بُكَائِيَا
خَلِيلَيَّ لَوْ أَبْصَرْتُمَانِي وَأَهْلَهَا لَدَيَّ حُضُورٌ خِلْتُمَانِي سَوَائِيَا
وَلَمَّا دَخَلْتُ الْحَيَّ خَلَّفْتُ مُوقِدِي بِسِلْسِلَةٍ أَسْعَى أَجُرُّ رِدَائِيَا
أَمِيلُ بِرَأْسِي سَاعَةً وَتَقُودُنِي عَجُوزٌ مِنَ السُّؤَّالِ تَسْعَى أَمَامِيَا
وَقَدْ أَحْدَقَ الصِّبْيَانُ بِي وَتَجَمَّعُوا عَلَيَّ وَشَدُّوا بِالْكِلَابِ ضَوَارِيَا
نَظَرْتُ إِلَى لَيْلَى فَلَمْ أَمْلِكِ الْبُكَا فَقُلْتُ ارْحَمُوا ضَعْفِي وَشِدَّةَ مَا بِيَا

فقَامَتْ هيُوبًا وَالنِّسَا مِنْ أجْلِهَا ... تَمْشِينَ نَحْوِى إذْ سَمِعْنَ بُكَائِيَا
مُعَذِّبَتِى لَوْلاَكِ مَا كُنْتُ سَائِلاً ... أدُورُ عَلَى الأَبْوَابِ فِى النَّاسِ عَارِيَا
وَقَائِلَةٍ وَارَحْمَــةً لِشَبَابِهِ ... فَقُلْتُ أجَلْ وَارَحْمَــةً لِشَبَابِيا
أصَاحِبَةَ الْمِسْكِينِ مَاذَا أصَابَهُ ... وَمَا بَالُهُ يَمْشِى الْوَجَى مُتَنَاهِيَا
وَمَا بَالُهُ يَبْكِى فَقُلْتُ لِمَا بِهِ ... ألاَ إنَّمَا أبْكِى لهَا لاَ لِمَا بِيَا
بَنِى عَمِّ لَيْلَى مَنْ لَكُمْ غَيْرَ أنَّنِى ... مُجِيدٌ لِلَيْلَى مَا حَيِيتُ الْقَوَافِيَا
وَدِدْتُ عَلَى طِيبِ الحَيَاةِ لَوَ انَّهَا ... يُزَادُ لِلَيْلَى عُمْرُهَا مِنْ حَيَاتِيَا
فَمَا زَادَنِى الوَاشُونَ إلاَّ صَبَابَةً ... وَمَا زَادَنِى النَّاهُونَ إلاَّ أعَادِيَا
فَيَا أهْلَ لَيْلَى كَثَّرَ اللهُ فِيكُمُ ... مِنَ أمْثَالِهَا حَتَّى تَجُودُوا بِهَا لِيَا
فَمَاسَّ جَنْبِى الأَرْضَ حَتَّى ذَكَرْتُهَا ... وَإلاَّ وَجَدْتُ رِيحَهَا فِى ثِنَائِيَا

فلما فرغ من شعره مر عَلَى وجهه عريانا لايلوى عَلَى شىء ، فمر بطبيبين وهما عَلَى قارعة الطريق فدنامنهما وقال : هل فيكما من يداوينى ؟ قالا: من أنت ؟قال:المجنون المستهام ، قالا: ماللعشاق عندنا دواء هو أبلغ من حبيب ضجيع إلى جنبه !! فقال :

طَبِيبَانِ لَوْ دَاوَيْتُمَانِى أجَرْتُمَا ... فَمَا لَكُمَا تَسْتَغْنِيَانِ عَنِ الأَجْرِ
فَقَالاَ بِحُزْنٍ مَالَكَ الْيَوْمَ حِيلَةٌ ... فُمتْ كَمَدًا أوْ عَزِّ نَفْسَكَ بِالصَّبْرِ
وَقَالوا دَوَاءُ الحُبِّ غَالٍ وَدَاؤُهُ
رَخِيصٌ وَلاَ يُنْبِيكَ شَىْءٌ كَمَنْ يَدْرِى

فَمَا بَرِحَا حَتَّى كَتَبْتُ وَصِيَّتِي
وَنَشَّرْتُ أَكْفَانِي وَقُلْتُ احفُرُوا قَبْرِي
فما خَيْرُ عِشْقٍ ليسَ يَقْتُلُ أَهْلَهُ كَمَا قَتَلَ الْعُشَاقَ فى سَالِفِ الدَّهْرِ
أَلاَ حَبَّذَا الْبِيضُ الأَوَانِسُ كالدُّمَى وَإِنْ كُنَّ يُسكِرْنَ الْفَتَى أَيَّمَا سُكْرِ

قال فما مضى إلا قليل إذ هو بغراب ساقط على شجرة ينعق ، فدنا منه وقال :

أَلاَ يَاغُرَابَ الْبَيْنِ هَيَّجْتَ لَوْعَتِي فَوَيْحَكَ خَبِّرْنِي بِمَا أنتَ تَصْرُخُ
أَبِي الْبَيْنِ مِنْ لَيْلَى فَإِنْ كُنتَ صادِقًا
فَلاَ زَالَ عَظْمٌ مِنْ جَنَاحِكَ يُفسَخُ
وَلاَ زَالَ رَامٍ فِيكَ فَوَّقَ سَهمَهُ فَلاَ أنتَ فى عُشٍّ وَلاَ أنتَ تَفْرُخُ
وَلاَ زِلْتَ عَنْ عَذْبِ المِيَاهِ مُنَفَّرًا وَوَكْرُكَ مَهْدُومًا وَبَيْضُكَ يُرْضَخُ
فَإِنْ طِرْتَ أَرْدَتْكَ الحتُوفُ وَإِنْ تَقَعْ
تَقَيَّضَ ثُعْبَانٌ بِوَجهِكَ يَنْفُخُ
وَعَايَنْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ لَحْمَكَ مُشْدَخًا عَلَى جَمْرِ حَرِّ النَّارِ يُشْوَى وَيُطْبَخُ
وَلاَ زِلْتَ فى شرِّ الْعَذَابِ مُخَلَّدًا وَرِيشُكَ مَنْتُوفٌ وَلَحْمُكَ يُشْرَخُ

وقال :

أَقُولُ وَقَدْ صَاحَ ابنُ دَأْبَةَ غُدْوَةً بِبُعْدِ النَّوَى لاأَخْطَأَتْكَ الشَّبَائِكُ

أَفِى كُلِّ يَوْمٍ رَائِعِى أنتَ رَوْعَةً ... بِبَيْنُونَةِ الأَحْبَابِ إِلْفُكَ فَارِكُ
وَلاَ بِضْتَ فِى خَضْرَاءَ مَاعِشتَ بَيْضَةً ... وَضَاقَتْ بِرَحْبَيْهَا عَلَيْكَ المَسَالِكُ
وَفَارَقْتَ أمّ الأَفْرُخِ السُّوءِ عَنْ قِلًى
وَنَاحَتْ عَلَى إِبْنَيْكَ الضَّرُوسُ المَاحِكُ
وَأَصْبَحْتَ مِنْ بَيْنِ الأَحِبَّةِ هَالِكًا ... كَمَا أُنِّىَ مِنْ بَيْنَ الأَحِبَّةِ هَالِكُ

وقال :

أَمِنْ أَجْلِ غِرْبَانٍ تَصَايَحْنَ غُدْوَةً ... بِبَيْنُونَةِ الأَحْبَابِ دَمْعُكَ سَافِحُ
نَعَمْ جَادَتِ الْعَيْنَانِ مِنِّى بِعَبْرَةٍ ... كَمَا سُلَّ مِنْ نَظْمِ اللآلِى تَطَارُحُ
أَلاَ يَاغُرَابَ الْبَيْنِ لاصِحتَ بَعْدَهُ ... وَأَمْكَنَ مِنْ أَوْدَاجِ حَلْقِكَ ذَابِحُ
يَرُوعُ قُلُوبَ الْعَاشِقِينَ ذَوِى الهَوَى ... إِذَا أَمِنُوا الشَّنْحَاجَ أَنَّكَ صَائِحُ
وَعَدِّ سِوَاءَ الحُبِّ وَاتْرُكْهُ خَالِيًا ... وَكُنْ رَجُلاً وَاجْمَحْ كَمَا هُوَ جَامِحُ

ثم مضى عَلى وجهه ، فبينما هو يدور إذ مرّ بأطيار على أشجار يجاوب بعضُها بعضًا ويهدِرن فدنا منهن وقال :

أَلاَ يَاحَمَامَاتِ الحِمَى عُدْنَ عَوْدَةً ... فَإِنِّى إِلَى أَصْوَاتِكُنَّ حَنُونُ
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ عُدْنَ لِشِقْوَتِى ... وَكِدْتُ بِأَسْرَارٍ لَهُنَّ أُبِينُ
وَعُدْنَ بِقَرْقَارِ الهَدِيرِ كَأَنَّمَا ... شَرِبْنَ مُدَامًا أَوْ بِهِنَّ جُنُونُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِى مِثْلَهُنَّ حَمَائِمًا ... بَكَيْنَ فَلَمْ تَدْمَعْ لَهُنَّ عُيُونُ

وَكُنَّ حَمَامَاتٍ جَمِيعًا بِعَيْطَلٍ … فَأَصْبَحْنَ شَتَّى مَالَهُنَّ قَرِينُ
فَأَصْبَحْنَ قَدْ قَرْقَرْنَ إِلاَّ حَمَامَةً … لَهَا مِثْلُ نَوْحِ النَّائِحَاتِ رَنِينُ
تُذَكِّرُنِي لَيْلَى عَلَى بُعْدِ دَارِهَا … رَوَاجِفُ قَلْبٍ مَاتَ وَهْوَ حَزِينُ
إِذَا مَاخَلاَ لِلنَّوْمِ أَرَّقَ عَيْنَه … نَوَائِحُ وُرْقٍ فَرْشُهُن غُصُونُ
تَدَاعَيْنَ مِنْ بَعْدِ الْبُكَاءِ تَأَلُّمًا … فَقَلَّبْنَ أَرْيَاشًا وَهُنَّ سُكُونُ
فَيَالَيتَ لَيْلَى بَعْضُهُنّ وَلَيْتَنِي … أَطِيرُ وَدَهْرِي عِنْدَهُنَّ رَكِينُ
إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْزُرَانَةٍ … إِذَا غَمَزُوهَا بِالأَكُفِّ تَلِينُ

وقال أيضاً :

أَجِدَّكِ يا حَمَامَاتٍ بِطَوْقٍ … فَقَدْ هَيَّجْتِ مَشْغُوفًا حَزِينَا
أَغَرَّكِ يا حَمَامَاتٍ طَرِيقٌ … بِأَنِّى لاَ أَنَامُ وَتَهْجَعِينَا
وَإِنِّى قَدْ بَرَانِي الحُبُّ حَتَّى … ضَنِيتُ وَمَا أَرَاكِ تُغَيَّرِينَا
أَرَادَ اللهُ مَحْلَكِ فِى السُّلاَمَي … إِلَى مَنْ بِالحَنِينِ تُشَوِّقِينَا
وَلَسْتِ وَإِنْ حَنَنْتِ أَشَدَّ وَجْدًا … وَلَكِنِّى أُسِرُّ وَتُعْلِنِينَا
وَبِى مِثْلُ الَّذِى بِكِ غَيْرَ أَنِّى … أُجِلُّ عَنِ الْعِقَالِ وَتُعْقَلِينَا
أَمَا وَاللهِ غَيْرَ قِلًى وَبُغْضٍ … أُسُدُّ وَلَمْ أَزَلْ جَزِعاً حَزِينَا
لَقَدْ جُعِلَتْ دَوَاوِينُ الْغَوَانِي … سِوَى دِيوَانِ لَيْلِى مُمْحَلِينَا
فَقِدْمًا كُنتِ أَرْجَى النَّاسِ عِنْدِى … وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى مَاتَطْلُبِينَا

أَلاَ لاتَنْسَيْنَ رَوْعَاتِ قَلْبِي وَعِصْيَانِي عَلَيْكِ العَاذِلِينَا

وقال أيضاً :

أَإِنْ سَجَعَتْ فى بَطْنِ وَادٍ حَمَامَةٌ تُجَاوِبُ أُخْرَى دَمْعُ عَيْنِكَ دَافِقُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بُكَاءَ حَمَامَةٍ بِلَيْلٍ وَلَمْ يَحْزُنْكَ إِلْفٌ مُفَارِقُ
وَلَمْ تَرَ مَفْجُوعاً بِشَيْءٍ يُحِبُّهُ سِوَاكَ وَلَمْ يَعْشَقْ كَعِشْقِكَ عَاشِقُ
بَلَى وَأَفِقْ عَنْ ذِكْرِ لَيْلَى فَإِنَّمَا
أَخُو الحُبِّ مَنْ ذَاقَ الهَوَى وَهْوَ تَائِقُ

ثم جلس متفكرا حزينا ، ثم هام على وجهه ، فبينما هو سائر إذ مر بسرب من قطا يتطاير فقال :

شَكَوْتُ إِلَى سِرْبِ القَطَا إِذْ مَرَرْنَ بِي
فَقُلْتُ وَمِثْلِي بِالْبُكَاءِ جَدِيرُ
أَسِرْبَ الْقَطَا هَلْ مِنْ مُعِيرٍ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إِلى مَنْ قد هَوَيْتُ أَطِيرُ
وَأَيُّ قَطَاةٍ لَمْ تُعِرْنِي جَنَاحَهَا فَعَاشَتْ بِضُرٍّ وَالجَنَاحُ كَسِيرُ
وَإِلاَّ فَمَنْ هٰذَا يُؤَدِّي رِسَالَةً فَأَشْكُرُهُ إِنَّ الْمُحِبَّ شَكُورُ
إِلى الله أَشْكُو صَبْوَتِي بَعْدَ كُرْبَتِي
وَنِيرَانُ شَوْقِي مَا بِهِنَّ فُتُورُ
فَإِنِّي لَقَاسِي الْقَلْبِ إِنْ كُنتُ صَابِرًا غَدَاةَ غَدٍ فِيمَنْ تَسِيرُ نَسِيرُ

فَإِنْ لَمْ أَمُتْ غَمًّا وَهَمًّا وَكُرْبَةً ... يُعَاوِدُنِي بَعْدَ الزَّفِيرِ زَفِيرُ
إِذَا جَلَسُوا فِي مَجْلِسٍ نَذَرُوا دَمِي ... فَكَيْفَ تَرَاهَا عِنْدَ ذَاكَ تُجِيرُ
وَدُونَ دَمِي هَزُّ الرِّمَاحِ كَأَنَّهَا ... تَوَقُّدُ جَمْرٍ ثَاقِبٍ وَسَعِيرُ
وَزُرْقٌ مَقِيلُ الْمَوْتِ تَحْتَ ظُبَاتِهَا(١) ... وَنَبْلٌ وَشِرْيَانٌ لَهُنَّ مُجِيرُ
إِذَا غَمَزَتْ أَصْحَابُهُنَّ تَرَنَّمَتْ ... مُعَطَّفَةً لَيْسَتْ بِهِنَّ كُسُورُ
قَطَعْنَ الْحَصَى وَالرَّمْلَ حَتَّى تَفَلَّقَتْ ... قَلَائِدُ فِي أَعْنَاقِهَا وَظُفُورُ
وَقَالَتْ أَخَافُ الْمَوْتَ إِنْ يَشْحَطِ النَّوَى
فَيَا كَبِدًا مِنْ خَوْفِ ذَاكَ تَغُورُ
سَلُوا أُمَّ عَمْرٍو هَلْ يُنَوَّلُ عَاشِقٌ ... أَخُو سَقَمٍ أَمْ هَلْ يُفَكُّ أَسِيرُ
أَلَا قُلْ لِلَيْلَى هَلْ تَرَاهَا مُجِيرَتِي ... فَإِنِّي لَهَا فِيمَا لَدَيَّ مُجِيرُ
أَظَلُّ بِحُزْنٍ إِنْ تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ ... مِنَ الْوُرْقِ مِطْرَابُ الْعَشِيِّ بَكُورُ
بَكَتْ حِينَ دَرَّ الشَّوْقُ لِي وَتَرَنَّمَتْ ... فَلَا صَحِلٌ(٢) تُرْبِي بِهِ وَصَفِيرُ
لَهَا رُفْقَةٌ يُسْعِدْنَهَا فَكَأَنَّمَا ... تَعَاطَيْنَ كَأْسًا بَيْنَهُنَّ تَدُورُ
بِجِزْعٍ مِنَ الْوَادِي فَضَاءٌ مَسِيلُهُ ... وَأَعْلَاهُ أَثْلٌ نَاعِمٌ وَسَدِيرُ
بِهِ بَقَرٌ لَا يَبْرَحُ الدَّهْرَ سَاكِنًا ... وَآخَرُ وَحْشِيُّ السِّخَالِ يَثُورُ

(١) الظبات : جمع ظبة ، وهى حدّ السيف .
(٢) صحل صوته كفرح : بحّ .

وقال أيضًا :

أَجَدَّ بِأَحْيَاءِ الجَمِيعِ بُكُورُ ... وَبَانَ الأَخِلَّاءُ الَّذِينَ تَزُورُ
وَشَقَّ عَصَا الجِيرَانِ يَوْمَ تَرَحَّلُوا ... نَوًى بِالكُلَيْبَاتِ عَنْكَ تَجُورُ
بَرَاعَةُ مَكْرُوهٍ مِنَ البَيْنِ لَمْ يَكُنْ ... لَهَا دُونَ تَكْدِيرِ الصَّفَاءِ نَكِيرُ
مُحِبٌّ أَتَاهَا أَنَّ مَابَيْنَ بِيشَةٍ ... وَنَجْرَانَ مُخْضَرُّ الجَنَابِ مُطِيرُ
أَيَذْهَبُ عَقْلِي بَعْدَ عِلْمِي وَإِنْ عَلَا ... عِذَارِيَ مِنْ بَعْدِ المَشِيبِ قَتِيرُ
وَمُسْتَجْهِلِي بَعْدَ التَّحَلُّمِ نِسْوَةٌ ... أَشَارَ بِلَيْلَى نَحْوَهُنَّ مُشِيرُ
تَعَوَّدْنَ قَتْلَ المُسْلِمِينَ كَأَنَّمَا ... لَهُنَّ دِمَاءُ المُسْلِمِينَ طَهُورُ
وَقُلْنَ تَزَوَّجْ وَادْعُ مَا كَانَ بَيْنَنَا ... أَجَارَكَ مِنْ رَيْبِ الزَّمَانِ مُجِيرُ
أَرَدْنَ بِلَأْيٍ مَاقَضَيْنَ لُبَانَةً ... فَقَدْ غَارَ أَوْ كَادَ النُّجُومُ تَغُورُ

وقال أيضًا :

شُغِفَ الفُؤَادُ بِجَارَةِ الجَنْبِ ... فَظَلِلْتُ ذَا أَسَفٍ وَذَا كَرْبِ
يَاجَارَتِي أَمْسَيْتِ مَالِكَةً ... رُوحِي وَغَالِبَةً عَلَى لُبِّي

وذكر أبو إسحق بن الهيثم أن رجلاً مرّ بليلى وهى واقفة على باب خبائها، فقالت : أين تريد ياعبد الله ؟ فقال : أريد بنى عامر، فزفرت زفرة وقالت :

يَاأَيُّهَا الرَّاكِبُ المُزْجِي مَطِيَّتَهُ ... عَرِّجْ لِأُنْبِيءَ عَنِّي بَعْضَ مَاأَجِدُ

فَمَا رَأَى النَّاسُ مِنْ وَجْدِي تَضَمَّنَهُمْ   إِلاَّ وَوَجْدٌ بِهِ فَوْقَ الَّذِي أَجِدُ
هَوَى رِضَاهُ وَإِنِّي فِي مَوَدَّتِهِ   وَحُبِّهِ آخِـــرَ الْأَيَّامِ أَجْتَهِدُ

فلما بلغ المجنونَ ذلك كتب إليها مع ذلك الرجل :

أَأَنْتِ الَّتِي كَلَّفْتِنِي دَلَجَ السُّرَى   وَجُونُ الْقَطَا بِالْجَلْهَتَيْنِ جُثُومُ
أَأَنْتِ الَّتِي قَطَّعْتِ قَلْبِي حَرَارَةً   وَرَقْرَقْتِ دَمْعَ الْعَيْنِ فَهْوَ سَجُومُ
أَأَنْتِ الَّتِي أَغْضَبْتِ قَوْمِي كُلَّهُمْ   بَعِيدَ الرِّضَى دَانِي الصُّدُودِ كَظِيمُ
أَأَنْتِ الَّتِي أَخْلَفْتِنِي مَا وَعَدْتِنِي   وَأَشْمَتِّ بِي مَنْ كَانَ فِيكِ يَلُومُ
أَأَبْرَزْتِنِي لِلنَّاسِ ثُمَّ تَرَكْتِنِي   لَهُمْ غَرَضًا أُرْمَى وَأَنْتِ سَلِيمُ
فَلَوْ أَنَّ قَوْلاً يَكْلُمُ[1] الْجِسْمَ قَدْ بَدَا   بِجِسْمِيَ مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ كُلُومُ

ثمّ قال : إن المجنون اعتل بعلة فبعثت إليه ليلى تعوده وتقول : إن تهيأت زيارتك غدًا فعلتُ ، فقال :

تَعُودُ مَرِيضًا أَسْقَمَتْهُ بِهَجْرِهَا   وَلاَ عَادَتْهُ عَادَ لاَ يَعْرِفُ السَّقَمَا
لَقَدْ أَضْرَمَتْ فِي الْقَلْبِ نَارًا مِنَ الْجَوَى
فَمَا تَرَكَتْ عَظْمًا وَلاَ تَرَكَتْ لَحْمًا
وَإِنِّي عَلَى هُجْرَانِهَا وَصُدُودِهَا   وَمَا حَلَّ بِي مِنْهَا أَرَى حُبَّهَا حَتْمًا
خَلِيلَيَّ كُفَّا لاَ تَلُومَا مُتَيَّمًا   وَلاَ تَقْتُلاَ صَبًّا بِلَوْمِكُمَا ظُلْمَا

وقال أيضًا :

وَمِمَّا شَجَانِي أَنَّهَا يَوْمَ وَدَّعَتْ   تَقُولُ لَنَا : أَسْتَوْدِعُ اللهَ مَنْ أَدْرِي

---

(١) كلمته كلما من باب قتل : جرحته .

وَكَيْفَ أُعَزِّى النَّفْسَ بَعْدَ فِرَاقِهَا
وَقَدْ ضَاقَ بِالْكِتْمَانِ مِنْ حُبِّهَا صَدْرِى
فَوَاللهِ وَاللهِ الْعَزِيزِ مَكَانُهُ
وَقَدْ كَادَ رُوحِى أَنْ يَزُولَ بِلاَ أَمْرِى
خَلِيلَيَّ مُرَّا بَعْدَ مَوْتِى بِتُرْبَتِى وَقُولاَ لِلَيْلَى ذَا قَتِيلٌ مِنَ الْهَجْرِ

قال أبو بكر : مرّ رجل بالمجنون وهو يتردى فى الرمل ، فقال : مالك يا أبا المهدى ؟ فقال :

بِىَ الْيَوْمَ مَا بِى مِنْ هُيَامٍ أَصَابَنِى فَإِيَّاكَ عَنِّى لاَ يَكُنْ بِكَ مَا بِيَا
كَأَنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْقِى جُفُونَهَا غَدَاةَ رَأَتْ أَظْعَانَ لَيْلَى غَوَادِيَا
غَرُوبًا أَثَرَتْهَا نَوَاضِحُ مُغْرِبٍ مُعَلَّقَةً تُرْوِى نَخِيلاً صَوَادِيَا
أَمَرَّتْ فَفَاضَتْ مِنْ فُرُوعٍ حَثِيثَةٍ عَلَى جَدْوَلٍ يَعْلُو فَنًا مُتَعَادِيَا
وَقَدْ بَعُدُوا وَاسْتَطْرَدُوا الآلَ دُونَهُمْ بِدَيْمُومَةٍ قَفْرًا وَأُنْزِلْتُ جَادِيَا

قال : ثم تأوّه واستعبر فرأيت دموعه تتبادر على خده كاللؤلؤ المنثور وسمط الجمان المفصل بالشذور شفعًا ووترا ، وقال :

ذَكَرْتُ عَشِيَّةَ الصَّدَفَيْنِ لَيْلَى وَكُلَّ الدَّهْرِ ذِكْرَاهَا جَدِيدُ
إِذَا حَالَ الْغُرَابُ الْجَوْنُ(١) دُونِى فَمُنْقَلَبِى إِلَى لَيْلَى بَعِيدُ
عَلَى أَلِيَّةٍ إِنْ كُنْتُ أَدْرِى أَيَنْقُصُ حُبُّ لَيْلَى أَمْ يَزِيدُ
لَهَا فِى طَرْفِهَا لَحَظَاتُ حَتْفٍ تُمِيتُ بِهَا وَتُحْيِى مَنْ تُرِيدُ

(١) الجون يطلق بالاشتراك على الأبيض والأسود ، والجمع جون .

إنْ غَضِبَتْ رَأَيْتَ النَّاسَ هَلْكَى ... وَإنْ رَضِيَتْ فَأَرْوَاحٌ تَعُودُ
فَقُلْنَ لَقَدْ بَكَيْتَ فَقُلْتُ كَلاَّ ... وَهَلْ يَبْكِي مِنَ الطَّرَبِ الجَلِيدُ
وَلٰكِنْ قَدْ أَصَابَ سَوَادَ عَيْنِي ... عُوَيْدُ قَذًى لَهُ طَرْفٌ حَدِيدُ
فَقُلْنَ فَمَا لِدَمْعِهِمَا سَوَاءٌ ... أَكِلْتَا مُقْلَتَيْكَ أَصَابَ عُودُ

وقال أيضًا :

أَلاَ قَاتَلَ اللهُ الهَوَى مَا أَشَدَّهُ ... وَأَسْرَعَهُ لِلْمَرْءِ وَهْوَ جَلِيدُ
دَعَانِي الهَوَى مِنْ نَحْوِهَا فَأَجَبْتُهُ ... فَأَصْبَحَ بِي يَسْتَنُّ حَيْثُ يُرِيدُ

حدثنا : أبو عمرو الشيباني قال : حدثني نوفل بن مساحق ، قال : خرجت يومًا أتضيف الأروى(١) ومعي جماعة من أصحابي ، فلما صرت بناحية الحمى إذ أنا بأراكة قد بدا منها قطيع من ظباء في شخص إنسان يرى في ظل تلك الأراكة ، فتعجب أصحابي منه وعرفته ساعة رأيته ، فتخففت من ثيابي وخرجت أمشي رويدًا حتى أتيت الأراكة فرقيت عليها وأشرفت عليه وعلى الظباء ، وإذا أنا به قد تدلى الشعر على حاجبيه وعينيه ، فلم أكد أعرفه إلا بعد هويٍّ من النهار وهو يرتعي من ثمر الأراك لا يرفع رأسه ، فتمثلت بشيء من شعره ، وهو :

عَلَى ذِمَّتِي دَارٌ لِلَيْلَى كَأَنَّمَا ... إزَارَانِ مِنْ بُرْدٍ لَهَا خَلِقَانِ
وَكَيفَ إلَى لَيْلَى إذَا رَمَّ أَعْظُمِي ... وَصَارَ وِسَادِي مَنْكِبِي وَبَنَانِي

(١) الأورى : جمع كثرة للأروية ، وتجمع على أراوىّ وهى الأيايل ، وقيل غنم الجبل .

وَحَلَّتْ بِأَعْلَى بَيْشَتَيْنِ فَأَصْبَحَتْ   يَمَانِيَةً وَالرَّمْسُ غَيْرَ يَمَانِ

وقيل إن المجنون لما شهر أمره بليلى خُطبت له فأبى أبوها أن يزوجها وهكذا كانت العرب إذا شهر رجل بحبّ امرأة لم يزوجوها منه ، فاشتد وجده ، وتراقت سَوْرة عشقه ، وكان له عم يقال له يزيد ، وكان شجاعا بطلاً آلى أن لايتزوج المجنون بليلى ولا أحـــد من الناس إلا قتله فأنشأ يقول :

أَلاَ أَيُّهَا الشَّيْخُ الَّذِي مَا بِنَا يَرْضَى   شَقِيتَ وَلاَ أَدْرَكْتَ مِنْ عَيْشِكَ الخَفْضَا

شَقِيتَ كَمَا أَشْقَيْتَنِي وَتَرَكْتَنِي   أَهِيمُ مَعَ الهُلاَّكِ لاَأَطْعَمُ الْغَمْضَا

أَمَا وَالَّذِي أَبْلَى بِلَيْلَى بَلِيَّتِي   وَأَصْفَى لِلَيْلَى مِنْ مَوَدَّتِيَ المَحْضَا

لَأُعْطِيتُ فِي لَيْلَى الرِّضَا مَنْ يَبِيعُهَا   وَلَوْ أَكْثَرُوا لَوْمِي وَلَوْأَكْثَرُوا الْقَرْضَا

فَكَمْ ذَاكِرٍ لَيْلَى يَعِيشُ بِكُرْبَةٍ   فَيَنْفُضُ قَلْبِي حِينَ يَذْكُرُهَا نَفْضَا

وَحَقِّ الهَوَى إِنِّي أُحِسُّ مِنَ الهَوَى   عَلَى كَبِدِي نَارًا وَفِي أَعْظُمِي مَرْضَا

كَأَنَّ فُؤَادِي فِي مَخَالِيبِ طَائِرٍ   إِذَاذَكَرَتْهَا النَّفْسُ شُدَّتْ بِهِ قَبْضَا

كَأَنَّ فِجَاجَ الْأَرْضِ حَلْقَةُ خَاتَمٍ   عَلَيَّ فَمَا تَزْدَادُ طُولاً وَلاَعَرْضَا

وَأُغْشَى فَيُحْمَى لِي مِنَ الْأَرْضِ مَضْجَعِي   وَأُصْرَعُ أَحْيَانًا فَأَلْتَزِمُ الْأَرْضَا

رَضِيتُ بِقَتْلِي فِي هَوَاهَا لِأَنَّنِي أَرَى حُبَّهَا حَتْماً وَطَاعَتَهَا فَرْضَا
إذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى أَهِيمُ لِذِكْرِهَا
وَكَانَتْ مُنَى نَفْسِي وَكُنْتُ لَهَا أَرْضَى
وَإِنْ رُمْتُ صَبْرًا أَوْ سُلُوًّا بِغَيْرِهَا رَأَيْتُ جَمِيعَ النَّاسِ مِنْ دُونِهَا بَعْضَا

قال : فلما سمع عمُّه هذه الأبيات رَق قلبه له ، وقال : لا يتزوجها أحد سوى ابن أخي إلا قتلته ، فمكث برهة من دهره ، ثم إن يزيد هلك فأنشأ يقول :

خَلِيلَيَّ هَلْ قَيْظٌ بِنُعْمَانَ رَاجِعُ لَيَالِيهِ أَوْ أَيَّامُهُنَّ الصَّوَالِحُ
أَلَا لَا وَلَا أَيَّامُنَا بِمَتَالِعٍ رَوَاجِعُ مَا أَوْرَى بِزَنْدِيَ قَادِحُ
إذَا الْعَيْشُ لَمْ يَكْدُرْ عَلَيَّ وَلَمْ يَمُتْ
يَزِيدُ وَذُلِّي ذُو الْعَقِيدَةِ نَاصِحُ

قال فخطبوها من كل جانب ، فأخبرت أن أبا ليلى حج بها فرآها ، رجل من ثقيف فخطبها فزوجه ، فبلغ ذلك المجنونَ فأنشأ يقول :

أَلَا إِنَّ لَيْلَى الْعَامِرِيَّةَ أَصْبَحَتْ تَقَطَّعُ إِلَّا مِنْ ثَقِيفٍ حِبَالُهَا
إذَا الْتَفَتَتْ وَالْعِيسُ صُعْرٌ مِنَ الْبُرَى
بِنَخْلَةَ غَشَّى عَبْرَةَ الْعَيْنِ حَالُهَا
فَهُمْ حَبَسُوهَا مَحْبَسَ الْبُدْنِ وَابْتَغَى بِهَا الْمَالَ أَقْوَامٌ أَلَا قَلَّ مَالُهَا

وقال أيضًا :

أَلَا يَا بَائِعَيْ لَيْلَى بِمَكَّةَ ضِلَّةً ... تَبَايَعْتُمَا هَلْ يَسْتَوِى الثَّمَنَانِ
فَمَا غُبِنَ الْمُبْتَاعُ لَيْلَى بِمَالِهِ ... بَلِ الْبَائِعَا لَيْلَى هُمَا غُبِنَانِ

وقال أيضًا :

حَبِيبٌ نَأَى عَنِّى الزَّمَانُ بِقُرْبِهِ ... فَصَيَّرَنِى فَرْدًا بِغَيْرِ حَبِيبِ
فَلِى قَلْبُ مَحْزُونٍ وَعَقْلُ مُدَلَّهٍ ... وَوَحْشَةُ مَهْجُورٍ وَذُلُّ غَرِيبِ
فَيَا حُقُبَ الْأَيَّامِ هَلْ فِيكِ مَطْمَعٌ ... لِرَدِّ حَبِيبٍ أَوْ لِدَفْعِ كُرُوبِ

حكى الوالبى : قال حدثنا رجل عن إسحٰق بن إبراهيم الموصلى ، قال : خرج رجل منا إلى ناحية الشام و بلاد نجد فى طلب بعير له ، فأتى أحياء بنى عامر ، فإذا خيمة رفعت له فقصدها وقد بلّ المطر ثيابه ، فلما دنا إذا امرأة كلمته فقالت: انزل أيها الرجل ، قال :فنزلت وحططت رحلى وراحت إبلهم وغنمهم ، فإذا نَعَم كثيرة ، ورحل خصيب ، فقالت لبعض من كان مع الإبل : سلوا هذا الرجل من أين أقبل ؟ فقلت من ناحية نجد وتهامة ، فقالت يا عبد الله : بمن نزلت هنالك ؟ قلت ببنى عامر ، فتنفست الصعداء فقالت : بأبى ونفسى بنو عامر ، ثم قالت : وهل سمعت بفتى يقال له قيس و يلقّب بالمجنون ؟ فقلت : نعم والله نزلت بأبيه ، ولقد أتيته حتى نظرت إليه يهيم فى الصحراء مع الوحوش لايعقل حتى تذكر له ليلى ، فإذا ذكروها ثاب إليه عقله فيحدث بحديثها ، و ينشد شعره فيها ، قال فرفعت الستر

بينى و بينها فإذا هى شقة قمر لم ترعينى قط أجمل منها . وقالت : هل تروى شعره . قلت : بلى هو الذى يقول :

أَنِيرِى مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَفَلَ الْبَدْرُ ... وَقُومِى مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الْفَجْرُ

فَفِيكِ مِنَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ ضَوْؤُهَا ... وَلَيْسَ لَهَا مِنْكِ التَّبَسُّمُ وَالثَّغْرُ

بَلَى لَكِ نُورُ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ كُلُّهُ ... وَلاَ حَمَلَتْ عَيْنَيْكِ شَمْسٌ وَلاَ بَدْرُ

لَكِ الشَّرْقَةُ اللَّأْلاَءُ وَالْبَدْرُ طَالِعٌ ... وَلَيْسَ لَهَا مِنْكِ التَّرَائِبُ وَالنَّحْرُ

وَمِنْ أَيْنَ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ بِالضُّحَى ... بِمَكْحُولَةِ الْعَيْنَيْنِ فِي طَرْفِهَا فَتْرُ

وَأَنَّى لَهَا مِنْ دَلِّ لَيْلَى إِذَا انْثَنَتْ ... بِعَيْنَىْ مَهَاةِ الرَّمْلِ قَدْ مَسَّهَا الذُّعْرُ

تَبَسَّمُ لَيْلَى عَنْ ثَنَايَا كَأَنَّهَا ... إِقَاحٌ بِجَرْعَاءِ الْمَرَاضِينَ أَوْ دُرُّ

مُنَعَّمَةٌ لَوْ بَاشَرَ الذَّرُّ جِلْدَهَا ... لَأَثَّرَ مِنْهَا فِي مَدَارِجِهَا الذَّرُّ

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمْشِي تَقَارَبَ خَطْوُهَا ... إِلَى الْأَقْرَبِ الْأَدْنَى تَقَسَّمَهَا الْبَهْرُ

مَرِيضَةُ أَثْنَاءِ التَّعَطُّفِ إِنَّهَا ... تَخَافُ عَلَى الْأَرْدَافِ يُثْلِمُهَا الخَصْرُ

فَمَا أُمُّ خِشْفٍ بِالْعَقِيقَيْنِ تَرْعَوِى ... إِلَى رَشَإٍ طِفْلٍ مَفَاصِلُهَا خِدْرُ

بِمُخْضَلَّةٍ جَادَ الرَّبِيعُ زُهَاءَهَا ... رِهَامٌ وَسْمِىٌّ سَحَائِبُهُ غُزْرُ

وَقَفْنَا عَلَى أَطْلَالِ لَيْلَى عَشِيَّةً ... بِأَجْرَعِ حَزْوَى وَهْيَ طَامِسَةٌ دُثْرُ

يُجَادُ بِهَا مُزْنَانِ أَسْحَمُ بَاكِرٌ ... وَآخَرُ مِعْهَادُ الرَّوَاحِ لَهَا زَجْرُ

وَأَوْفَى عَلَى رَوْضِ الْخُزَامَى نَسِيمُهَا
وَأَنْوَارُهَا وَاخْضَوْضَلَ الْوَرَقُ النَّضْرُ
رَوَاحًا وَقَدْ حَنَّتْ أَوَائِلَ لَيْلِهَا   رَوَائِحُ لِلْإِظْلَامِ أَلْوَانُهَا كُدْرُ
تُقَلِّبُ عَيْنَيْ خَازِلٍ بَيْنَ مُرْعَوٍ   وَآثَارِ آيَاتٍ وَقَدْ رَاحَتِ الْعُفْرُ
بِأَحْسَنَ مِنْ نَيْلَى مُعِيدَةَ نَظْرَةٍ   إِلَيَّ الْتِفَاتًا حِينَ وَلَّتْ بِهَا السُّفْرُ
مُحَاذِيَةً عَيْنِي بِدَمْعٍ كَأَنَّمَا   تَحَلَّبُ مِنْ أَشْفَارِهَا دُرَرٌ غُزْرُ
فَلَمْ أَرَ إِلَّا مُقْلَةً لَمْ أَكَدْ بِهَا   أَشِيمُ رُسُومَ الدَّارِ مَافَعَلَ الذِّكْرُ
رَفَعْنَ بِهَا خُوصَ الْعُيُونِ وَجَوَّهَا   مُلَفَّعَةً تُرْبًا وَأَعْيُنُهَا غُزْرُ
وَمَا زِلْتُ مَحْمُودَ التَّصَبُّرِ فِي الَّذِي
يَنُوبُ وَلَكِنْ فِي الْهَوَى لَيْسَ لِي صَبْرُ

فقالت : هل من مزيد ؟ فأنشدتها :

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُنِي وَلَيْلَى   كَفَاكَ بِذَاكَ فِيهِ لَنَا تَدَانِي
تَرَى وَضَحَ النَّهَارِ كَمَا أَرَاهُ   وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي

قال : فوالله ما أتممت البيتين حتى شهقت شهقة وسقطت على وجهها تبكى حتى ظننت أن كبدها قد تصدّعت ، فقلت : ياهذه أما تتقين الله الذى إليه معادك ؟ فما عقلت ما قلت لها ، ثم قامت بعد حين وأنشأت تقول :

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِى وَالْخُطُوبُ كَثِيرَةٌ
مَتَى رَحْلُ قَيْسٍ مُسْتَقِلٌّ فَرَاجِعُ

بِنَفْسِيَ مَنْ لاَيَسْتَقِلُّ بِرَحْلِهِ   وَمَنْ هُوَ إِنْ لَمْ يَحْفَظِ اللهُ ضَائِعُ

ثم أقمت عندها ثلاثًا تسألني عن خبره وتبكى بكاء يتوجع لها كبدى فوالله ماظننت أحدا يجد كوجدها ولوعتها ، فلما أردت الرحيل سألت عنها فإذا هى ليلى العامرية .

وذكر قيس بن معمر قال : قلت لليلى من أعز خلق الله عليك ؟ قالت من إذا عثَرت نهضت باسمه ، و إذا رقدت حلَمت بوجهه ، قيس بن الملوح ، قلتُ فهل قلت فى ذلك شعرا ؟ قالت نعم وأنشأت تقول :

إِذَا ذَهَلَتْ رِجْلِي بَدَأْتُ بِذِكْرِهِ   وَأَحْلُمُ فِي نَوْمِي بِهِ وَأَعِيشُ
إِذَا ذُكِرَ الَمجْنُونُ زَالَتْ بِذِكْرِهِ   قُوَى النَّفْسِ أَوْكَادَ الْفُؤَادُ يَطِيشُ
وَوَاللهِ مَا كَادَ الْفُؤَادُ يُجِنُّهُ   وَإِنْ كَانَ صَدْرِى مِنْ هَوَاهُ يَجِيشُ

قال : أبو جائع لبيد بن عنبسة : حدثنى بعض الرواة أنه قيل لليلى العامرية : والله لئن لم تنتهى عن ذكره لنقتلنكما معا ، فبعثت إلى القائل على يد مولاة لها رقعة مكتوبا فيها :

تَوَعَّدَنِي قَوْمِى بِقَتْلِي وَقَتْلِهِ
فَقُلْتُ اقْتُلُونِي وَاتْرُكُوهُ مِنَ الذَّنبِ

وَلا تُتْبِعُوهُ بَعْدَ قَتْلِيَ ذِلَّةً   كَفَى بِالَّذِى يَلقَاهُ مِنْ سَوْرَةِ الْحُبِّ

وقال الحسن بن سهل : أنشدنى أحمد بن إسماعيل الكاتب لليلى العامرية :

قَدْ كُنْتُ حَاذِرَةً لِلدَّهْرِ عَارِفَةً أَنْ سَوْفَ يَطْلُبُنِي بِالرَّمْيِ مُفْتَقِدَا
حَتَّى رَمَانِي بِمَنْ قَدْ جَلَّ عَنْ صِفَتِي فَمَا أَرَى لِي بِهِ وَيْلِي الْغَدَاةَ يَدَا
لِقْتُ الدَّوَاةَ بِمَاءِ الْعَيْنِ ثُمَّ بِهِ كَتَبْتُ مَا يَكْتُبُ الْمَجْهُودُ إِذْ جَهَدَا
هٰذَا الْوِدَاعُ لِمَنْ رُوحِي الْفِدَاءُ لَهُ قَدْ خِفْتُ أَنْ لَا أَرَاهُ بَعْدَهُ أَبَدَا

قال أبو بكر : ذكر أن المجنون لما تراقت علته إلى صعوبة وعسر علاجه ، وأعيي الأطباء دواؤه ، ولم ينجع فيه الدواء ، وصار إلى أسوإ حالة من توحشه فى الصحارى ، شق ذلك على لَيْلَى وأذهلها ،فدعت بغلام وكتبت إليه : بسم الله الرحمن والله يا ابن عم إن الذى بى أضعافُ مابقلبك ولكن وجدت السترة أبقى للمودة وأحمد فى العاقبة ،وكتبت آخره :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَلْقَى وَمَا بِي مِنَ الْهَوَى بِأَرْعَنَ رُكْنَاهُ صَفاً وَحَدِيدُ
تَقَطَّعَ مِنْ وَجْدٍ وَذَابَ حَدِيدُهُ وَأَمْسَى تَرَاهُ الْعَيْنُ وَهْوَ عَمِيدُ
ثَلَاثُونَ يَوْمًا كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَمُوتُ وَأَحْيَا إِنَّ ذَا لَشَدِيدُ

وأمرت الغلام بطلبه حيث كان من الأرض وردِّ الجواب عنه ، فمضى الغلام ولم يزل يطلبه فى الصحارى حتى أصابه فى يوم صائف شديد القيظ والسموم ، قد لجأ إلى كهف جبل عظيم وهو مطرق ينكت الأرض بأصبعه ويقول :

أَحِنُّ إلَى لَيْلَى وَإنْ شَطَّتِ النَّوَى   بِلَيْلَى كَمَا حَنَّ الْيَرَاعُ الْمُثَقَّبُ
يَقُولُونَ لَيْلَى عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا   أَلَا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَبِيبُ الْمُعَذِّبُ

فدنا منه وقال: ياقيس هذا كتاب ليلى وهى تقرأ عليك السلام، فلما ذكرها رجع إليه عقله واستوى قاعدا وتناول الكتاب وقرأه وجعل يبكى ويقول:

إِذَا جَاءَنِي مِنْهَا الْكِتَابُ بِعَيْنِهِ
خَلَوْتُ بِبَيْتِي حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الْأَرْضِ
فَأَبْكِي لِنَفْسِي رَحْمَةً مِنْ جَفَائِهَا
وَيَبْكِي مِنَ الْهُجْرَانِ بَعْضِي عَلَى بَعْضِي
وَإِنِّي لَأَهْوَاهَا مُسِيئًا وَمُحْسِنًا   وَأَقْضِي عَلَى نَفْسِي لَهَا بِالَّذِي تَقْضِي
فَحَتَّى مَتَى رُوحُ الرِّضَا لَا يَنَالُنِي   وَحَتَّى مَتَى أَيَّامُ سُخْطِكِ لَا تَمْضِي

ثم أجابها عن كتابها بهذه الأبيات:

أَيَا مُهْدِيَي نَعْيَ الْحَبِيبِ صَبِيحَةً   بِمَنْ وَإِلَى مَنْ جِئْتُمَا تَشِيَانِ
بِمَنْ لَوْ رَآهُ عَانِيًا لَفَدَيْتُهُ   وَمَنْ لَوْ رَآنِي عَانِيًا لَفَدَانِي
فَمَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الْحَبِيبَ رِسَالَةً   بِأَنَّ فُؤَادِي دَائِمُ الْخَفَقَانِ
وَأَنِّي مَمْنُوعٌ مِنَ النَّوْمِ مُدْنَفٌ   وَعَيْنَايَ مِنْ وَجْدِ الْأَسَى يَكِفَانِ

وضمنه:

وَجَدْتُ الْحُبَّ نِيرَانًا تَلَظَّى   قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ لَهَا وَقُودُ

فَلَوْ كَانَتْ إِذَا احْتَرَقَتْ تَفَانَتْ ... وَلَكِنْ كُلَّمَا احْتَرَقَتْ تَعُودُ
كَأَهْلِ النَّارِ إِذْ نَضِجَتْ جُلُودٌ ... أُعِيدَتْ لِلشَّقَاءِ لَهُمْ جُلُودُ

وضمنه :

أَمَا وَالَّذِي أَعْطَاكَ بَطْشًا وَقُوَّةً ... وَصَبْرًا وَأَزْرَى بِي وَنَقَّصَ مِنْ بَطْشِي
لَقَدْ مَحَّضَ اللهُ الهَوَى لَكَ خَالِصًا ... وَرَكَّبَهُ فِي الْقَلْبِ مِنِّي بِلاَ غِشِّ
تَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ الجُسُومِ وَحَلَّ بِي ... فَإِنْ مُتُّ يَوْمًا فَاطْلُبُوهُ عَلَى نَعْشِي
سَلِي اللَّيْلَ عَنِّي هَلْ أَذُوقُ رُقَادَهُ ... وَهَلْ لِضُلُوعِي مُسْتَقَرٌّ عَلَى فَرْشِي

وذكر أبو بكر قال: مرّ بعض الأطباء بحيهم ، فسأله أبو المجنون ماتعالج ؟ قال: أعالج كل مسحور مجنون ، قال: مكانك لآتيك بابن لى يهيم فى الصحراء فخرجوا فى طلبه فما زالوا يطلبونه حتى قدروا عليه وأدخلوه إلى الطبيب ، وأقبل يسقيه ، فلما أكثر عليه المعالجة أنشأ يقول :

أَلاَ يَا طَبِيبَ الجِنِّ وَيْحَكَ دَاوِنِي ... فَإِنَّ طَبِيبَ الإِنْسِ أَعْيَاهُ دَائِيَا
أَتَيْتُ طَبِيبَ الإِنْسِ شَيْخًا مُدَاوِيًا ... بِمَكَّةَ يُعْطِي فِي الدَّوَاءِ الأَمَانِيَا
فَقُلْتُ لَهُ يَا عَمِّ حُكْمُكَ فَاحْتَكِمْ ... إِذَا مَا كَشَفْتَ الْيَوْمَ يَا عَمِّ مَابِيَا
فَخَاضَ شَرَابًا بَارِدًا فِي زُجَاجَةٍ ... وَطَرَّحَ فِيهِ سَلْوَةً وَسَقَانِيَا
فَقُلْتُ وَمَرْضَى النَّاسِ يَسْعَوْنَ حَوْلَهُ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْكَ مُدَاوِيَا
فَقَالَ : شِفَاءُ الحُبِّ أَنْ تُلْصِقَ الحَشَا ... بِأَحْشَاءِ مَنْ تَهْوَى إِذَا كُنْتَ خَالِيَا

فقال : وأَيم الله عاشق ، ودواؤه أن يلصق الحشا بأَحشاء من يهوى ، والمجنون يَعَضُّ شفتيه ولسانه حتى خلَّوه ، ثم نهض فمضى على وجهه ، فبينما هو يدور إذ رأى نارا فى سفح أكمة فدنا منه فإذاهم قوم رعاة فقال :

رُعَاةَ اللَّيْلِ مَا فَعَلَ الصَّبَاحُ ... وَمَا فَعَلَتْ أَوَائِلُهُ المِلَاحُ
وَمَا بَالُ الَّذِينَ سَبَوْا فُؤَادِى ... أَقَامُوا أَمْ أَجَدَّ بِهِمْ رَوَاحُ
وَمَا بَالُ النُّجُومِ مُعَلَّقَاتٍ ... بِقَلْبِ الصَّبِّ لَيْسَ لَهَا بَرَاحُ
كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الجَنَاحُ
لَهَا فَرْخَانِ قَدْ تُرِكَا بِقَفْرٍ ... وَعُشُّهُمَا تُصَفِّقُهُ الرِّيَاحُ
إِذَا سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيحِ هَبَّا ... وَقَالَا أُمُّنَا تَأْتِى الرَّوَاحُ
فَلَا بِاللَّيْلِ نَالَتْ مَا تَرَجَّى ... وَلَا فِى الصُّبْحِ كَانَ لَهَا بَرَاحُ
رُعَاةَ اللَّيْلِ كُونُوا كَيْفَ شِئْتُمْ ... فَقَدْ أَوْدَى بِىَ الحُبُّ المُتَاحُ

وقال أبو بكر : إن المجنون بينما هو ذات يوم فى أودية مضلة ، قد أسند ظهره إلى بعض الصُّوَى[1] حزينا كئيبا ، إذ مر به فارسان فنعيا إليه ليلى وقالا : مضت لسبيلها ، فخر المجنون مغشيًّا عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

أَيَا نَاعِيَىْ لَيْلَى بِجَانِبِ هَضْبَةٍ ... أَمَا كَانَ يَنْعَاهَا إِلَىَّ سِوَاكُمَا

(١) الصوى : الأعلام من الحجارة ، الواحدة صوّة .

فَمِنْ بَعْدِ لَيْلَى لاَ أَمَرَّتْ قُوا كُمَا وَيَا نَاعِيَيْ لَيْلَى بِجَانِبِ هَضْبَةٍ
تبَارِيحَ نَوْحٍ فِي الدِّيَارِ كِلاَ كُمَا وَيَا نَاعِيَيْ لَيْلَى لَقَدْ هِجْتُمَا لَنَا
وَلاَ مُتُّمَا حَتَّى يَطُولَ بَلاَكُمَا فَلاَ عِشْتُمَا إلاَّ حَلِيفَيْ مُصِيبَةٍ
نَبَوْتُكَمَا إِنِّي أُحِبُّ رَدَا كُمَا وَأَسْلَمَتِ الْأَيَّامُ فِيهَا عَجَائِبًا
لَقَدْ حَلَّ بَيْنُ الْوَصْلِ فِيمَا أَرَا كُمَا أَظُنُّكُمَا لاَتَعْلَمَانِ مُصِيبَتِي

قال ثم مضى حتى دخل الحى بعد مالم يكن يمرّ به إلا من بعيد ، فأتى أهل بيتها فعزاهم فعزوه ، فقال دلونى على قبرها ، فلما عرفه رمى بنفسه على القبر والتزمه ، وأنشأ يقول :

عَلَيْكَ نِسَاءٌ مِنْ فَصِيحٍ وَمِنْ عُجْمِ أَيَا قَبْرَ لَيْلَى لَوْ شَهِدْنَاكَ أَعْوَلَتْ
يَكُنْ لَكَ مَاعِشْنَا عَلَيْنَا بِهَا نُعْمِ وَيَاقَبْرَ لَيْلَى أُكْرِمَنَّ مَحَلَّهَا
بِأَرْضِكَ لاَخِلٌّ لَدَيْهَا وَلاَ عَمٌّ وَيَاقَبْرَ لَيْلَى إِنَّ لَيْلَى غَرِيبَةٌ
شَبِيهاً لِلَيْلَى ذَا عَفَافٍ وَذَا كَرَم وَيَاقَبْرَ لَيْلَى مَاتَضَمَّنْتَ قَبْلَهَا
وَخَالَتُهَا وَالحَافِظُونَ لَهَا الذِّمَمِ وَيَاقَبْرَ لَيْلَى غَابَتِ الْيَوْمَ أُمُّهَا

قال أبو بكر : ثم إنه كان يأوى إلى قبر ليلى ويدور نهاره ، حتى جف جلده على عظمه ، واشتدت بليته ، فمكث على ذلك دهرا ثم إن رجلا أحب لقاءه والنظر إليه وإلى ناحية نجد ، قال الرجل فلما صرت إلى بلدهم سرت إلى محلّتهم ، فإذا أبوه شيخ كبير وحوله أبناءه ذوو أموال

وهيئات ونعم ظاهرة ، فسألتهم عن المجنون فبكوا بكاء شديدا ، ثم قال الشيخ : كان والله أحسن هؤلاء ، وإنه عشق امرأة من قومه لم تكن فى المال مثله ، فلم أر تزويجها إياه ، وما أظن أنه يبلغ من حبها مابلغ ، فلما تمادى به الحب طلبناها فمنعها أبوها ثم زوجها غيره ، فجن ابنى بها وجدا فحبسناه وقيدناه ، فكان يعَض لسانه وشفتيه حتى كاد يقطعهما ، فلما رأينا منه ذلك خلينا سبيله فذهب فى هذه الفيافى يرعَى مع الوحوش ويرد المياه ونحن نبعث إليه كل يوم بطعام وشراب فيوضع له حيث يرى ، فإذا انتحى عنه الواضع جاء وأكل . قلت : فإنى أحب لقاءه فدلونى عليه ، قالوا : اخرج إلى هذه الصحراء فإنك تصيبه هناك . قلت : إذا رأيته كيف أحتال للدنوّ منه ؟ قالوا : فإذا رأيته فأنشده بعض شعر قيس بن ذريح ، فإنه معجب بشعره . قال الأعرابى : فذهبت فأصبته قاعدا يلعب بالتراب ، فجلست قريباً منه ، فأقبل يلاحظنى ساعة بعد ساعة ، فقلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

وَإِنِّى لَمُفْنٍ دَمْعَ عَيْنَىَّ بِالبُكَا حِذَارًا لِمَا قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِى بِكَفِّى إلاَّ أَنَّ مَاحَانَ حَائِنُ
وَقَالُوا غَدًا أَوْ بَعْدَ ذَاكَ بَلِيَّةٌ فِرَاقُ حَبِيبٍ بَانَ أَوْ هُوَ بَائِنُ

قال : فبكى بكاء شديداً وسالت دموعه على خده وأنشأ يقول :

لِصَفْرَاءَ فِي قَلْبِي مِنَ الْحُبِّ شُعْبَةٌ   هَوًى لَمْ تَرُمْهُ الْغَانِيَاتُ صَمِيمُ
بِهِ حَلَّ بَيْتَ الْحُبِّ ثُمَّ انْثَنَى بِهِ   فَزَالَتْ بُيُوتُ الْحَيِّ وَهْوَ مُقِيمُ
وَمَنْ يَتَهَيَّضْ(١) حُبُّهُنَّ فُؤَادَهُ   يَمُتْ وَيَعِشْ مَا عَاشَ وَهْوَ سَقِيمُ
فَحَرٍ إِنْ صَادَ أَنْ يُذَدْ عَنْ بَرْدِ مَشْرَبٍ   وَعَنْ بَلَلاَتِ الْمَاءِ وَهْوَ يَحُومُ
بَكَتْ دَارُهُمْ مِنْ فَقْدِهِمْ وَتَهَلَّلَتْ   دُمُوعِي فَأَيُّ الْجَازِعَيْنَ أَلُومُ
أَهٰذَا الَّذِي يَبْكِي مِنَ الْهُونِ وَالْبِلَا   أَمَ آخَرُ يَبْكِي شَجْوَهُ وَيَهِيمُ
إِلَى اللهِ أَشْكُو حُبَّ لَيْلَى كَمَا شَكَا   إِلَى اللهِ فَقْدَ الْوَالِدَيْنِ يَتِيمُ
يَتِيمٌ جَفَاهُ الْأَقْرَبُونَ فَعَظْمُهُ   كَسِيرٌ وَفَقْدُ الْوَالِدَيْنِ عَظِيمُ
أَفِي الْحَقِّ هٰذَا أَنَّ قَلْبَكَ فَارِغٌ   وَقَلْبِي مِمَّا قَدْ أُجِنُّ يَهِيمُ
إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى أَئِنُّ لِذِكْرِهَا   كَمَا أَنَّ بَيْنَ الْعَائِدَاتِ سَقِيمُ
عَلَيَّ دِمَاءُ الْبُدْنِ إِنْ كَانَ حُبُّهَا   عَلَى النَّأْيِ فِي طُولِ الزَّمَانِ يَرِيمُ(٢)
دَعُونِي فَمَا عَنْ رَأْيِكُمْ كَانَ حُبُّهَا   وَلٰكِنَّهُ حَظٌّ لَهَا وَقَسِيمُ

وقال أيضاً :

لَمْ تَزَلْ مُقْلَتِي تَفِيضُ بِدَمْعٍ   مِثْلِ فَيْضِ الْغُيُوثِ مُنْذُ فَقَدْتُهَا
مُقْلَةٌ دَمْعُهَا حَثِيثٌ وَأُخْرَى   كُلَّمَا جَفَّ دَمْعُهَا أَسْعَدَتْهَا
مَا جَرَتْ هٰذِهِ عَلَى الْخَدِّ حَتَّى   لَحِقَتْ تِلْكَ بِالَّتِي سَبَقَتْهَا

---

(١) يتهيض : يكسر .
(٢) يريم : يبرح وينقطع .

دَمْعَةٌ بَعْدَ دَمْعَةٍ فَإِذَا مَا ... لَحِقَتْ تِلْكَ هذِهِ أَحْدَرَتْهَا

قال الأعرابى : فأقسمت عليه أن ينشدنى بعض أشعاره ، فأنشد يقول :

لَئِنْ كَثُرَتْ رُقَّابُ لَيْلَى فَطَالَمَا ... لَهَوْتُ بِلَيْلَى مَالَهُنَّ رَقِيبُ

وَإِنْ حَالَ يَأْسٌ دُونَ لَيْلَى فَرُبَّمَا ... أَتَى الْيَأْسُ دُونَ الشَّيْءِ وَهْوَ حَبِيبُ

وَمُنِّيتِي حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتِنِي ... عَلَى شَرَفٍ لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ

صَدَدْتِ وَأَشْمَتِّ الْعِدَاةَ بِهَجْرِنَا ... أَثَابَكِ فِيمَا تَصْنَعِينَ مُثِيبُ

أُبْعِدُ عَنْكِ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ ... بِذِكْرِكِ وَالْمَمْشَى إِلَيْكِ قَرِيبُ

مَخَافَةَ أَنْ تَسْعَى الْوُشَاةُ مَظِنَّةً ... وَإِكْرَامُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ

أَمَا وَالَّذِى يَبْلُو السَّرَائِرَ كُلَّهَا ... وَيَعْلَمُ مَاتُبْدِى بِهِ وَتَغِيبُ

لَقَدْ كُنْتِ مِمَّنْ تَصْطَفِى النَّفْسُ خُلَّةً ... لَهَا دُونَ خِلَّانِ الصَّفَاءِ حُجُوبُ

وَإِنِّى لَأَسْتَحْيِيكِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... عَلَيَّ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مِنْكِ رَقِيبُ

تَلِجِينَ حَتَّى يَذْهَبَ الْيَأْسُ بِالْهَوَى ... وَحَتَّى تَكَادُ النَّفْسُ عَنْكِ تَطِيبُ

سَأَسْتَعْطِفُ الْأَيَّامَ فِيكِ لَعَلَّهَا ... بِيَوْمِ سُرُورِى فِى هَوَاكِ تَئُوبُ

وقال أيضًا :

أَلَا هَلْ طُلُوعُ الشَّمْسِ يُهْدِى تَحِيَّةً ... إِلَى آلِ لَيْلَى أَوْ دُنُوُّ غُرُوبِهَا

أَتُضْرَبُ لَيْلَى إِنْ مَرَرْتُ بِذِى الْغَضَى

وَمَا ذَنْبُ لَيْلَى إِنْ طَوَى الْأَرْضَ ذِيبُهَا

أَجَلْ عَلَيَّ الرَّجْمُ إِنْ قُلْتُ حَبَّذَا ... غُرُوبُ ثَنَايَا أُمِّ عَمْرٍو وَطِيبُهَا

وقال أيضًا :

فَيَالَيْتَ لَيْلَى وَافَقَتْ كُلَّ حَجَّةٍ قَضَاءً عَلَى لَيْلَى وَإِنِّى رَفِيقُهَا
فَتَجْمَعَنَا مِنْ نَخْلَتَيْنِ ثَنِيَّةٌ يَغَصُّ بِأَعْضَادِ المَطِيِّ طَرِيقُهَا
فَأَلْقَاكِ عِنْدَ الرُّكْنِ أَوْ جَانِبِ الصَّفَا
وَيُشْغِلُ عَنَّا أَهْلَ مَكَّةَ سُوقُهَا
فَأَنْشُدُهَا أَنَّ تَحْوِى الهُونُ وَالهَوَى وَتَمْنَحُ نَفْسًا طَالَ مَطْلاً حُقُوقُهَا

قال : فلما فرغ انصرفت إلى الحى وحدثتهم بحديثه وما أنشدنى من شعره ، فقالوا لى : ويحك إن رجعْت إليه فانظر عسى أن تأخذ قصيدته التى قالها فى الثمدين فقد جهدنا على نسخها فلم نقدر عليها ، قال الأعرابى فمررت إليه ثانياً فلم أزل أطلبه حتى وجدته على قوز[1] من الأرض قد كومته الريح كوما يخط بأصبعه فيه ، فدنوت وجلست إليه وهو يلاحظنى فقلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

فَوَاكَبِدِى وَعَاوَدَنِى رَوَاعِى وَكَانَ فِرَاقُ لُبْنَى كَالخِدَاعِ
تَكَنَّفَنِى الْوُشَاةُ فَأَزْعَجُونِى فَيَا لَلّٰهِ لِلْوَاشِى الْمُطَاعِ
فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ أَلُومُ نَفْسِى عَلَى شَىْءٍ وَلَيْسَ بِمُسْتَطَاعِ
كَمَغْبُونٍ يَعَضُّ عَلَى يَدَيْهِ تَبَيَّنَ غَبْنُهُ بَعْدَ الْبِيَاعِ
إِذَا مَاتَذْكُرِينَ تَحِنُّ نَفْسِى حَنِينَ الْإِلْفِ يَطْرَبُ لِلسَّمَاعِ

(١) القوز : الكثيب ، وجمعه أقواز وقيزان .

قال المجنون : بـــــلى والله واستعبَر حيناً ، ثم قال : أنا أشعر منه حيث أقول :

فَوَاللهِ ثُمَّ وَاللهِ إنِّى لدَائِباً   أُفَــكِّرُ مَاذَنْبِى إِلَيْكِ فَأَعْجَبُ
وَوَاللهِ مَاأَدْرِى عَلَامَ هَجَرْتِـنِى   وَأَىَّ أُمُورٍ فِيكِ يَالَيْلَ أَرْكَبُ
أَأَقْطَعُ حَبْلَ الْوَصْلِ فَالمَوْتُ دُونَهُ
وَأَشْرَبُ كَأْسًا مِنْكُمُ لَيْسَ يُشْرَبُ
أَمَ اهْرَبُ حَتَّى لاأَرَى لِى مُجَاوِرًا   أَمَ افْعَلُ مَاذَا أَمْ أَبُوحُ فَأُغْلَبُ
فَأَيُّهُمَا يَالَيْـلُ مَا تَفْعَلِينَهُ   فَأَوَّلُ مَهْجُورٌ وَآخَـــرُ مُتْعَبُ
فَلَوْ تَلْتَقِى أَرْوَاحُنَا بَعْدَ مَوْتِنَا
وَمِنْ دُونِ رَمْسَيْنَامِنَ الْارْضِ مَنْكِبُ
لَظَلَّ صَدَى رَمْسِى وَإِنْ كُنْتُ رِمَّةً
لَدَى صَوْتِ لَيْـلَى يَهَشُّ وَيَطْرَبُ

فإن لم أكن أشعر منه فى هذا ، فأنا أشعر منه حيث أقول :

أَلَا يَانَسِيمَ الرِّيحِ حُكْمُكَ جَائِرُ   عَلَىَّ إِذَا أَرْضَيْتَنِى وَرَضِيتُ
أَلَا يَانَسِيمَ الرِّيحِ لَوْ أَنَّ وَاحِدًا   مِنَ النَّاسِ يَبْلِيهِ الْهَوَى لَبَلِيتُ
فَلَوْ خُلِطَ السُّمُّ الزُّعَافُ بِرِيقِهَا   تَمَصَّصْتُ مِنْـــهُ نَهْلَةً وَرَوِيتُ

ثم قال : فإن لم أكن أشعر منه فى هذا فأنا أشعر منه حيث أقول :

وَعارَضْنَ بِالْعُقْيَانِ كُلَّ مُفَلَّجٍ   بِهِ الظَّلْمُ لَمْ تَقْلُلْ لَهُنَّ غُرُوبُ

رُضَابٌ كَرِيحِ الْمِسْكِ يَجْـلومُتُونَهُ مِنَ الضَّرْوِ أَوْ فَرْخِ الْبَشَامِ قَضِيبُ

ثم غشى عليه ، فلما أفاق قلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

هَبُونِي امْرَأً إِنْ تُحْسِنُوا فَهْوَ شَاكِرٌ
لِذَاكَ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنُوا فَهْوَ صَافِحُ

فَإِنْ يَكُ أَقْوَامٌ أَشَارُوا بِقَتْلِهَا فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكِ صَالِحُ

فَمَا وَجَدَتْ وَجْدِي بِهَا أُمُّ وَاحِدٍ بِوَاحِدِهَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ صَفَائِحُ

وَجَدْتُ بِهَا وَجْدَ الْمُضِلِّ رِكَابَهُ بِمَكَّةَ وَالرُّكْبَانُ غَادٍ وَرَائِحُ

فقال أنا أشعر منه حيث أقول :

وَأَدْنَيْتِنِي حَتَّى إِذَا مَا فَتَنْتِنِي بِقَوْلٍ يُحِلُّ الْعُصْمَ سَهْلَ الْأَبَاطِحِ

تَجَافَيْتِ عَنِّي حَتَّى لَا لِيَ حِيلَةٌ
وَغَادَرْتِ مَا غَادَرْتِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ

فقلت : سألتك بحق قبر ليلى أن تنشدنى قصيدتك التى قلتها فى التمدين وقد كنتُ أخذت معى دواة وقرطاسا فأنشد :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالسِّنِينَ الْخَوَالِيَا وَأَيَّامَ لَا نَخْشَى عَلَى اللَّهْوِ نَاهِيَا

وَيَوْمٌ كَظِلِّ الرُّمْحِ قَصَّرْتُ ظِلَّهُ بِلَيْلَى فَلَهَّانِي وَمَا كُنْتُ لَاهِيَا

بِثَمْدَيْنِ لَاحَتْ نَارُ لَيْلَى وَصُحْبَتِي بِذَاتِ الْغَضَى تُزْجِي الْمَطِيَّ النَّوَاجِيَا

فَقَالَ بَصِيرُ الْقَوْمِ لَمَحْتُ كَوْكَباً بَدَا فِي سَوَادِ اللَّيْلِ فَرْدًا يَمَانِيَا
فَقُلْتُ لَهُ بَلْ نَارُ لَيْلَى تَوَقَّدَتْ بِعَلْيَا تَسَامَى ضَوْؤُهَا فَبَدَالِيَا
فَلَيْتَ رِكَابَ الْقَوْمِ لَمْ تَقطَعِ الْغَضَى
وَلَيْتَ الْغَضَى مَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا
فَيَالَيْلُ كَمْ مِنْ حَاجَةٍ لِي مُهِمَّةٍ إِذَا جِئْتُكُمْ بِاللَّيْلِ لَمْ أَدْرِ مَاهِيَا
خَلِيلَيَّ إِنْ لَا تَبْكِيَانِي أَلْتَمِسْ خَلِيلًا إِذَا أَنْزَفتُ دَمْعِي بَكَى لِيَا
فَمَا أُشْرِفُ الْأَيْفَاعَ إِلَّا صَبَابَةً وَلَا أُنْشِدُ الْأَشْعَارَ إِلَّا تَدَاوِيَا
وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بَعْدَ مَا يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
لَحَا اللهُ أَقْوَامًا يَقُولُونَ إِنَّنَا وَجَدْنَا طِوَالَ الدَّهْرِ لِلْحُبِّ شَافِيَا
وَعَهْدِي بِلَيْلَى وَهْيَ ذَاتُ مُؤَصَّدٍ تَرُدُّ عَلَيْنَا بِالْعَشِيِّ الْمَوَاشِيَا
فَشَبَّ بَنُو لَيْلَى وَشَبَّ بَنُوابْنِهَا وَأَعْلَاقُ لَيْلَى فِي فُؤَادِي كَمَا هِيَا
إِذَا مَا جَلَسْنَا مَجْلِسًا نَسْتَلِذُّهُ تَوَاشَوْا بِنَا حَتَّى أَمَلُّ مَكَانِيَا
سَقَى اللهُ جَارَاتٍ لِلَيْلَى تَبَاعَدَتْ بِهِنَّ النَّوَى حَيْثُ احْتَلَلْنَ الْمَطَالِيَا
وَلَمْ يُنْسِنِي لَيْلَى افْتِقَارٌ وَلَا غِنًى وَلَا تَوْبَةٌ حَتَّى احْتَضَنْتُ السَّوَارِيَا
وَلَا نِسْوَةٌ صَبِغْنَ كَيْدَاءَ جَلْعَدًا لِتُشْبِهَ لَيْلَى ثُمَّ عَرَضْنَهَا لِيَا
خَلِيلَيَّ لَا وَاللهِ لَا أَمْلِكُ الَّذِي قَضَى اللهُ فِي لَيْلَى وَلَا مَاقَضَى لِيَا
قَضَاهَا لِغَيْرِي وَابْتَلَانِي بِحُبِّهَا فَهَلَّا بِشَيْءٍ غَيْرِ لَيْلَى ابْتَلَانِيَا
وَخَبَّرْتُمَانِي أَنَّ تَيْمَاءَ مَنْزِلٌ لِلَيْلَى إِذَا مَا الصَّيْفُ أَلْقَى الْمَرَاسِيَا

فَهذِى شُهُورُ الصَّيْفِ عَنَّا قَدِ انْقَضَتْ … فَمَا لِلنَّوَى تَرْمِي بِلَيْلَى الْمَرَامِيَا

فَلَوْ أَنَّ وَاشٍ بِالْيَمَامَةِ دَارُهُ
وَدَارِى بِأَعْلاَ حَضْرَمَوْتَ اهْتَدَى لِيَا

وَمَاذَا لَهُمْ لاَ أَحْسَنَ اللهُ حَالَهُمْ … مِنَ الْحَظِّ فِي تَصْرِيمِ لَيْلَى حِبَالِيَا

وَقَدْ كُنْتُ أَعْلُو حُبَّ لَيْلَى فَلَمْ يَزَلْ
بِيَ النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ حَتَّى عَلاَنِيَا

فَيَارَبِّ سَوِّ الْحُبَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا … يَكُونُ كَفَافًا لاَ عَلَيَّ وَلاَ لِيَا

فَمَا طَلَعَ النَّجْمُ الَّذِى يُهْتَدَى بِهِ … وَلاَ الصُّبْحُ إِلاَّ هَيَّجَا ذِكْرَهَا لِيَا

وَلاَ سِرْتُ مِيلاً مِنْ دِمَشْقَ وَلاَ بَدَا … سُهَيْلٌ لِأَهْلِ الشَّامِ إِلاَّ بَدَا لِيَا

وَلاَ سُمِّيَتْ عِنْدِى لَهَا مِنْ سَمِيَّةٍ … مِنَ النَّاسِ إِلاَّ بَلَّ دَمْعِي رِدَائِيَا

وَلاَ هَبَّتِ الرِّيحُ الْجَنُوبُ لِأَرْضِهَا … مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ بِتُّ لِلرِّيحِ جَانِيَا

فَإِنْ تَمْنَعُوا لَيْلَى وَتَحْمُوا بِلاَدَهَا … عَلَيَّ فَلَنْ تَحْمُوا عَلَيَّ الْقَوَافِيَا

فَأَشْهَدُ عِنْدَ اللهِ أَنِّى أُحِبُّهَا … فَهذَا لَهَا عِنْدِى فَمَا عِنْدَهَا لِيَا

قَضَى اللهُ بِالْمَعْرُوفِ مِنْهَا لِغَيْرِنَا … وَبِالشَّوْقِ مِنِّى وَالْغَرَامِ قَضَى لِيَا

وَإِنَّ الَّذِى أَمَّلْتُ يَا أُمَّ مَالِكٍ … أَشَابَ فُوَيْدِى(١) وَاسْتَهَانَ فُؤَادِيَا

أَعُدُّ اللَّيَالِي لَيْلَةً بَعْدَ لَيْلَةٍ … وَقَدْ عِشْتُ دَهْرًا لاَ أَعُدُّ اللَّيَالِيَا

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي … أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ بِاللَّيْلِ خَالِيَا

أَرَانِي إِذَا صَلَّيْتُ يَمَّمْتُ نَحْوَهَا … بِوَجْهِى وَإِنْ كَانَ الْمُصَلَّى وَرَائِيَا

---

(١) فود الرأس : جانباه .

وَمَا بِىَ إِشْرَاكٌ وَلَـكِنَّ حُبَّهَا ... وَعُظْمَ الجَوَى أَعْيَا الطَّبِيبَ المُدَاوِيَا
أُحِبُّ مِنَ الأَسْمَاءِ مَا وَافَقَ اسْمَهَا ... أَوَ أَشْبَهَهُ أَوْ كَانَ مِنْهُ مُدَانِيَا
خَلِيلَىَّ لَيْـلَى أَكْبَرُ الحَاجِ وَالمُنَى ... فَمَنْ لِي بِلَيْلَى أَوْ فَمَنْ ذَا لَهَا بِيَا
لَعَمْرِى لَقَدْ أَبْكَيْتِنِي يَا حَمَامَةَ الْعَقِيـــقِ وَأَبْكَيْتِ الْعُيُونَ الْبَوَاكِيَا
خَلِيلَىَّ مَا أَرْجُو مِنَ الْعَيْشِ بَعْدَ مَا ... أَرَى حَاجَتِي تُشْرَى وَلاَ تُشْتَرَى لِيَا
وَتُجْرِمُ لَيْـلَى ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّنِي ... سَلَوْتُ وَلاَ يَخْـفَى عَلَى النَّاسِ مَا بِيَا
فَلَمْ أَرَ مِثْلَيْنَا خَلِيــلَىْ صَبَابَةٍ ... أَشَدَّ عَلَى رَغْمِ الأَعَادِى تَصَافِيَا
خَلِيلاَنِ لاَ نَرْجُو اللِّقَاءَ وَلاَ نَرَى ... خَلِيلَيْنِ لاَ يَرْجُونَ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا
وَإِنِّى لَأَسْتَحْيِيكِ أَنْ تَعْرِضَ المُنَى ... بِوَصْلِكِ أَوْ أَنْ تَعْرِضِى فِى المُنَى لِيَا
يَقُولُ أُنَاسٌ عَلَّ مَجْنُونَ عَامِرٍ ... يَرُومُ سُلُوًّا قُلْتُ أَنَّى لِمَا بِيَا
بِىَ الْيَأْسُ أَوْ دَاءُ الهُيَامِ أَصَابَنِى ... فَإِيَّاكِ عَنِّى لاَ يَكُنْ بِكِ مَا بِيَا
إِذَا مَا اسْتَطَالَ الدَّهْرُ يَا أُمَّ مَالِكٍ ... فَشَأْنُ المَنَايَا الْقَاضِيَاتِ وَشَانِيَا
إِذَا اكْتَحَلَتْ عَيْنِى بِعَيْنِكِ لَمْ تَزَلْ ... بِخَيْرٍ وَجَلَّتْ غَمْرَةٌ عَنْ فُؤَادِيَا
فَأَنْتِ الَّتِى إِنْ شِئْتِ أَشْقَيْتِ عِيشَتِى ... وَأَنْتِ الَّتِى إِنْ شِئْتِ أَنْعَمْتِ بَالِيَا
وَأَنْتِ الَّتِى مَا مِنْ صَدِيقٍ وَلاَ عِدًا ... يَرَى نِضْوَ مَا أَبْقَيْتِ إِلاَّ رَثَى لِيَا
أَمَضْرُوبَةٌ لَيْـلَى عَلَى أَنْ أَزُورَهَا ... وَمُتَّخِذٌ ذَنْبًا لَهَا أَنْ تَرَانِيَا
إِذَا سِرْتُ فِى الأَرْضِ الْفَضَاءِ رَأَيْتُنِى
أُصَانِعُ رَحْلِي أَنْ يَمِيلَ حِيَالِيَا

يَمِينًا إذَا كَانَتْ يَمِيناً وَإنْ تَكُنْ   شِمَالاً يُنَازِعْنِي الهَوَى عَنْ شِمَالِيَا
وَإنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ   لَعَلَّ خَيَالاً مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
هِيَ السِّحْرُ إلاَّ أنَّ لِلسِّحْرِ رُقْيَةً   وَإنِّيَ لا أَلْقَى لَهَا الدَّهْرَ رَاقِيَا
إذَا نَحْنُ أدْلَجْنَا وَأنْتِ أمَامَنَا   كَفَا لِمَطَايَانَا بِذِكْرَاكِ هَادِيَا
ذَكَتْ نَارُ شَوْقِي فِي فُؤَادِي فَأَصْبَحَتْ   لَهَا وَهَجٌ مُسْتَضْرَمٌ فِي فُؤَادِيَا
ألاَ أيُّهَا الرَّكْبُ اليَمَانُونَ عَرِّجُوا   عَلَيْنَا فَقَدْ أمْسَى هَوَانَا يَمَانِيَا
أُسَائِلُكُمْ هَلْ سَالَ نُعْمَانُ بَعْدَنَا   وَحُبَّ إلَيْنَا بَطْنُ نُعْمَانَ وَادِيَا
ألاَ يَا حَمَامَيْ بَطْنِ نُعْمَانَ هِجْتُمَا   عَلَيَّ الهَوَى لَمَّا تَغَنَّيْتُمَا لِيَا
وَأبْكَيْتُمَانِي وَسْطَ صَحْبِي وَلَمْ أكُنْ   أُبَالِي دُمُوعَ العَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا
وَيَا أيُّهَا القُمْرِيَّتَانِ تَجَاوَبَا   بِلَحْنَيْكُمَا ثُمَّ اسْجَعَا عَلَّلانِيَا
فَإنْ أنْتُمَا اسْتَطْرَبْتُمَا أوْ أرَدْتُمَا   لَحَاقاً بِأطْلاَلِ الغَضَى فَاتْبَعَانِيَا
ألاَ لَيْتَ شِعْرِي مَا لِلَيْلَى وَمَا لِيَا   وَمَا لِلصِّبَا مِنْ بَعْدِ شَيْبٍ عَلاَنِيَا
ألاَ أيُّهَا الوَاشِي بِلَيْلَى ألاَ تَرَى   إلَى مَنْ تَشِيهَا أوْ لِمَنْ أنْتَ وَاشِيَا
لَئِنْ ظَعَنَ الأحْبَابُ يَا أُمَّ مَالِكٍ   فَمَا ظَعَنَ الحُبُّ الَّذِي فِي فُؤَادِيَا
فَيَارَبِّ إذْ صَيَّرْتَ لَيْلَى هِيَ المُنَى   فَزِنِّي بِعَيْنَيْهَا كَمَا زِنْتَهَا لِيَا
وَإلاَّ فَبَغِّضْهَا إلَيَّ وَأهْلَهَا   فَإنِّي بِلَيْلَى قَدْ لَقِيتُ الدَّوَاهِيَا

عَلَى مِثْلِ لَيْـلَى يَقتُلُ المَرْءُ نَفْسَهُ
وَإِنْ كُنْتُ مِنْ لَيْـلَى عَلَى اليْأسِ طَاوِيَا

خَلِيلَيّ إنْ ضَنُّوا بِلَيلَى فَقَرِّبَا
لِيَ النَّعْشَ وَالأَكْفَانَ وَاسْتَغفِرَا لِيَا

قال الأعرابى : فلما أتمّ هذه القصيدة ظهرت له ظبية فوثب فى طلبها والتفت إلىّ وقال : السلام عليك فما أراك ترانى بعد هذا أبدا .

قال الأعرابى ثم مضيت إلى الحىّ فأخبرتهم خبره وأنشدتهم قصيدته فكتبوها فلما كان من الغد بكرت إليه وطلبته فلم أقدر عليه فانصرفت إلى الحى وأعلمتهم ، فقام إخوته و بنو عمه وأهل بيته فطلبناه يومنا وليلتنا فلما أصبحنا هبطنا إلى واد كثير الحجارة والرمل إذا نحن به ميتا ، وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين :

تَوَسَّدَ أحْجَارَ المَهامِـهِ وَالقَفْرْ
وَمَاتَ جَرِيحَ القَلْبِ مُنْدَمِلَ الصَّدْر

فَيَالَيْتَ هذَا الحِبَّ يَعشَقُ مَرّةً
فَيَعْـلَمُ مَا يَلْقَى المُحِبُّ مِنَ الهَجْر

فرثيناه وعلت أصواتنا بالبكاء وحملناه إلى الحى ، فبكى عليه الغريب والقريب وكل من سمع باسمه يوما ، ثم غسلناه وكفناه ودفناه إلى جانب قبر ليلى ، رحمهما الله تعالى .

قال أبو بكر : لما مات الملوح أبو المجنون بلغه ذلك فأتى قبره وكانت له ناقة فنحرها على قبره ، وكانت العرب هذا شأنها تفعل ذلك إذا مات منهم أحد ، وأنشأ يقول :

عَقَرْتُ عَلَى قَبْرِ المُلَوَّحِ نَاقَتِي ... بِذِي الرِّمْثِ لَمَّا أنْ جَفَاهُ أقَارِبُهْ

فَقُلْتُ لَهَا كُونِي عَقِيرًا فَإِنَّنِي ... غَدَاةَ غَدٍ مَاشٍ وَبِالأَمْسِ رَاكِبُهْ

فَلاَ يُبْعِدَنْكَ اللهُ يَا ابْنَ مُزَاحِمٍ ... فَكُلُّ امْرِئٍ لِلْمَوْتِ لاَبُدَّ شَارِبُهْ

قال أبو بكر الوالبى : رحمه الله تعالى هذا جملة ماتناهى إلينا من أخبار المجنون وأشعاره وما كان منحولا من قصيدة أو خبر أعرضنا عن كتبه .

والله سبحانه وتعالى أعلم .

بحمد الله تعالى تم طبع كتاب [ديوان قيس بن الملوح] الشهير بمجنون ليلى العامرية مصححاً بمعرفتى ؟

أحمد سعد على

من علماء الأزهر الشريف

القاهرة فى يوم الخميس { ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٨ م
٢ نوفمبر « ١٩٣٩ م }
